

آفاق الطب الإسلامي

رؤية علمية وتاريخ فلسفي







هذا الكتاب

يستعرض هذا الكتاب تاريخ الطب الإسلامي من زاوية مختلفة عن الزوايا التاريخية والعلمية والفلسفية التي نظرت إليه من قبل ، يصور الكتاب الطب الإسلامي كائنا حيا فيصف حياته وسرها ، ويصف عمره ومراحل عمره ، ويصف طابعه وأثره ، ويصف آباءه وملامحه كما يصف ظروفه وحظوظه ، لا يفعل هذا الكتاب أكثر من هذا الذي تلخصه هذه الجملة ، وليته ينجح في أن يؤدِّي حق الطب الإسلامي عليه وأن يفي بحق الحقيقة عليه .

يضم هذا الكتاب أفكارًا قدمتها في محاضرات عدة تباين السامعون فيها في مستويات تلقيهم وفي مداخلاتهم الحاكمة على ما يستمعونه .

كما يقدم هذا الكتاب كثيرًا من الأفكار التي تضمنها الفصل الذي شرفت بكتابته في الكتاب التذكاري عن الثقافة العربية الإسلامية في العام الذي احتفل فيه معرض فرانكفورت الدولي للكتاب بها .

ويضم هذا الكتاب أيضًا موادّ كتبت في موسوعات متعددة عن أعلام هذا الطب .

وقد حرصت أن تتمثل في الأعلام الذين اخترت الكتابة عنهم الأطياف في الواسعة في التخصص والمكان والزمان والعبقرية والإنجاز .





آفاق الطب الإسلامي

رؤية علمية وتاريخ فلسفي

الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الفهرسة

الجوادي ، محمد

آفاق الطب الإسلامي رؤية علمية وتاريخ فلسفي

دكتور / محمد الجوادي - ط ١ - المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٥م

١٧٢ص ، ٢٥سم .

رقم الإيداع : ٩٦٤٧ / ٢٠١٥م

تدمك : ١ - ٥١١ - ٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema

د . محمد الجوادي

آفاق الطب الإسلامي

رؤية علمية وتاريخ فلسفي

دار الكلمة
للنشر والتوزيع



إهداء

إلى الصديق الكريم

الدكتور عادل سمير طلعت

هذا الكتاب

يستعرض هذا الكتاب تاريخ الطب الإسلامي من زاوية مختلفة عن الزوايا التاريخية والعلمية والفلسفية التي نظرت إليه من قبل ، يصور الكتاب الطب الإسلامي كائنا حيا فيصف حياته وسرها ، ويصف عمره ومراحل عمره ، ويصف طابعه وأثره ، ويصف آباءه وملامحه كما يصف ظروفه وحظوظه ، لا يفعل هذا الكتاب أكثر من هذا الذي تلخصه هذه الجملة ، وليته ينجح في أن يؤدّي حق الطب الإسلامي عليه وأن يفي بحق الحقيقة عليه .

كتبت هذا الأسلوب من موقع يمكن وصفه بأن مقعد في طائرة تقتصر صفُوفها على مقعد واحد بحيث يرى الجالس عليه من اليمين بالوضوح والشمول الذي يرى به من اليسار ، وقد كانت جدران هذه الطائرة من الزجاج الشفاف الذي مكنني من اطلاع واسع ورؤيا ممتدة ، وقد تجولت بي الطائرة مرة بعد أخرى حتى استطعت أن أرسم للطب الإسلامي هذه اللوحة التي يضمُّها هذا الكتاب ، وهي لوحة جرافيكية توظف اللونين الأبيضَ والأسودَ من خلال الحفر والظلال والإيحاء ، وتبتعد عن التلوين مع قدرتها عليه لأنها لا ترغب في استخدام تقنياته ، ولا الاستناد إلى تيسيراته ومساعداته ، وإنما هي لوحة حريصة على التعبير المجرد لإنجاز متراكب ومتراكم قدر لأصحابه أن يُقدموه للإنسانية من غير منّ ولا استعلاء ، ولم يتخذوا منه وسيلة للتربح ولا للتنفذ ولا للاستعمار ولا للاستغلال ، وهكذا قدِّر للطب الإسلامي أن يعيش نبيلا وأن يخلد في صورة نبيلة .

يضم هذا الكتاب أفكارًا قدمتها في محاضرات عدة تباين السامعون فيها في مستويات تلقيهم وفي مداخلاتهم الحاكمة على ما يستمعونه .

كما يقدم هذا الكتاب كثيرًا من الأفكار التي تضمنها الفصل الذي شرفت بكتابته في الكتاب التذكاري عن الثقافة العربية الإسلامية في العام الذي احتفل فيه معرض فرانكفورت الدولي للكتاب بها .

ويضم هذا الكتاب أيضًا موادّ كتبت في موسوعات متعددة عن أعلام هذا الطب .

وقد حرصت أن تتمثل في الأعلام الذين اخترت الكتابة عنهم الأطياف في الواسعة في التخصص والمكان والزمان والعبقرية والإنجاز .

■

يحدوني حلم وأمل في أن أكتب في موضوع هذا الكتاب مرجعًا كبيرًا يغني طلاب العلم عما يجدونه من نظرات المستغربين من العرب ، والمستشرقين من غير العرب ، ولا يزال الأمل قائمًا ، وإن كنت أحسُّ أني لن أستطيع الوفاء به .

ولهذا فإني أقدم هذا الكتاب اليوم أطرح ما فيه من آراء على من يقرّها وعلى من يصححها وعلى من يهذبها ، وعلى من ينقيها كذلك . فإذا قدِّر لي بعد ذلك أن أكتبه على نحو أكثر سعة وعمقًا وأطول باعًا ونفسا ففضل من الله ، وإلا فقد عرضت على نحو عجول ما آمنت به على نحو عميق وما قررته على نحو يقيني .

■

لا يخلو أمري في هذا الكتاب من انحياز إلى انتماءاتي المختلفة ، فأنا فيه طبيب يرى الطب متفوقًا على الفلسفة ، ومسلم يرى الإسلام متفضلا على الأديان ، و مؤرخ يرى التاريخ مفسرًا لما لا يفسره المنطق ، و مشتغل بالعلم يرى في الاشتغال بالعلم تفوقًا على إعمال العقل وحده ، بعبارة أخرى فإنّي لا أخفي النعم التي منحت لي من ممارسة الطب ، ومن التدين بالإسلام ، ومن التفوق في التاريخ والتجريب ، وكلها نعم من المولى جل جلاله .

وفضلا عن هذا كله ، فالكتاب بما فيه من رؤى مدينٌ لمعرفتي باللغة معرفة يسرت عليّ الوصف والتوصيف ، كما يسرت عليّ الاستيعاب والاستقصاء والاستكناه والاستقراء ثم الاستنتاج والاستنباط والحكم والتقرير.

تعمدت في تعريفي بأعلام تاريخ الطب أن أظهر في سرعة بالغة ما هو معجز وما هو منجز ، بعيدًا عما كان في إمكاني من اللجوء إلى أسلوب الاستيعاب للإنجازات والتأريخ

والاستغراق في رواية تفصيلات سيرٍ عظيمة ملهبة .

رتبت الأعلامَ الذين تناولتهم في الباب الثاني تبعًا لتواريخ وفاتهم الراجحة ، مع احتمال أن يكون من هو أقل عظمة قد مات بعد من هو أكثر عظمة وأصغر سنًا ، ونحن نعرف من العباقرة من لم يعمر طويلا ، ومع هذا فقد وجدت أن الأسلوب الذي اتبعته هو الأنسب لبيان الفكرتين الكرونولوجية والتطورية اللتين يستهدف الكتاب جلاءهما .

تعمدت في معظم فقرات هذا الكتاب أن أكتفي بذكر تاريخ الوفاة (وبالتاريخ الميلادي فقط) مع أن الهجري كان متاحا عندي ، ومع أن تواريخ ميلاد الأعلام الذين تحدثت عنهم موجودة ولو على سبيل التقريب ، وكان هدفي من هذا هدفًا عمليًا قبل أن يكون هدفًا علميًا وهو ألا أشتت من يقرأ لأول مرة عن الطب الإسلامي ، أو عن جانب من جوانب الحضارة الإسلامية ، ومع إيماني بأن هذا الذي فعلت قد يكون تبسيطًا لا محل له ، فإني لا أزال أراه ضروريا في مرحلة من مراحل التعريف والجذب والتودد إلى دعاة للفكرة .

■

صغت فقرات هذا الكتاب على طريقة أقرب ما تكون إلى صياغة المحاضرات الطبية العامة التي تقدم أفكارًا متصلة في صور نقاط منفصلة ، وقد وجدت أن هذا الأسلوب هو الأنسب لمثل هذا الكتاب في مثل هذا العصر الذي نعيشه ، فربطُ الفقرات ودمجُها والاستطرادُ منها ربما يؤذي كثيرًا من الحقائق التي نريد توضيحها وتفصيلها للقارئ (أو للمستمع) أو المتلقي على وجه العموم ذلك أن حقائق الموضوع الذي نتناوله في هذا الكتاب عديدة ومتنوعة ومتفرعة بل متناثرة أيضًا ، ولهذا فإنّ أسلوب البوارق والبارقات هو الأنسب لتناولها والاستضاءة بها ، ولا نقول إضاءتها .

■

وأخيرا فإنّ في هذا الكتاب كثيرا من النقص ، وكثيرًا مما يستدعى النقد ، وكثيرًا مما يستدعى النقض، بيد أنّه مع حجمه الصغير يستطيع أن يقول :إنه قدم ما لا يقدم إلا في موسوعات كبيرة .

أدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهديني سواء السبيل، وأن يرزقني العفاف والغنى، والبر والتقي، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم عليّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمتعني بسمعي وبصري وقوتي ما حييت، وأن يحفظ عليّ عقلي وذاكرتي، وأن يجعل كل ذلك الوارث مني.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يذهب عني ما أشكو من ألم ووصب وقلق، وأن يحسن ختامي ، وأن يجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاه.

والله سبحانه وتعالي أسأل أن يعينني على نفسي وأن يكفيني شرها، وشر الناس، وأن يوفقني لأن أتم ما بدأت،وأن ينفعني بما علمني، وأن يعلمني ما ينفعني ، وأن يمكنني من القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذي منحني العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول. وهو جلّ جلاله الذي هداني، ووفقني، وأكرمني، ونعّمني، وحبب فيّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتي وهي ـ بالطبع وبالتأكيد ـ كثيرة ومتواترة ومتنامية. فله سبحانه وتعالى ـ وحده ـ الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل .

د. محمد الجوادي

الباب الأول
علامات في تاريخ الطب الإسلامي

الفصل الأول

الإسلام وعلم الطب

الطبُّ الإسلامي والطب العربي وطب العرب مترادفات ثلاث تدل على الطب الذي تطور في العصر الذهبي للإسلام ، وكتب باللغة العربية ، التي كانت لغة التواصل المشترك في زمن الحضارة الإسلامية .

علم الطب مدين للإسلام بأكثر من دينه لأي دين أو أي نظام اجتماعي أو سياسي أو حضاري آخر ، هذه حقيقة ربما لا ندرك أبعادها في ظل انشغالنا حتى كمؤرخين للعلم والطب، بما آل إليه الطب من تقدم، وبما مر به من تطور، لكننا لا نستطيع حين نتأمل تاريخ الطب على مدى العصور والحضارات المرتبطة بالديانات إلا أن ندرك الحد الفاصل بين المهنة والعلم، ولا جدال في أن مهنة الطب مهنة قديمة، لكن علم الطب علم حديث وحديث جدًا إذا ما قورن بالمهنة نفسها، وإذا ما تتبعنا بدايات علم الطب في العصور الوسطى فسنجد أنفسنا، وكأننا نكتشف أنه أقرب إلى أن يكون علمًا إسلامي النشأة والتكوين.

ومن وجهة نظر إيمانية فلربما كان التفوق الذي أحرزه الدين الإسلامي في صياغة أسس علم الطب وفي تطوير فلسفته وفي توجيه ممارسته راجعًا في قدر كبير منه إلى الفضل الإلهي الذي اختص الله به ما نعتقد أنه الرسالة السماوية الخاتمة التي أتم بها نعمته على عباده، وأكمل بها دينهم، وشأنه شأن كل فضل إلهي ؛ فإنه بتعبير الفلاسفة و المتكلمين أمر توقيفي تمامًا ذلك أن الله وحده هو القادر على أن يختص بفضله من يشاء.

لكن الإيمان بمثل هذه الحقيقة لا ينفي أن هذا الفضل حققته تعاليم دينية

جاءت مرتبطة بالإسلام، ولم ترتبط من قبل بالأديان السابقة، ولا بالفلسفات الوضعية، ولا بالخبرة المتراكمة للبشرية.

ومن ثم فإن هذه الرسالة الإسلامية السماوية الخالدة (أو هذا الدين الإسلامي على أقل وصف لا يماري فيه المجادلون) قد حقق علاقة خاصة بنشأة بذور العلم الطبي لم يُسبقْ إليها، وقد نجح، كما سنرى، في أن يساعد هذا العلم على أن يأخذ طريقًا خصبًا كان كفيلًا بكل ما تحقق بعد هذا من تقدم طبي على مدى العصور التالية، وهو تقدم يدين بكل صدق وولاء للتقدم الذي أحرزته الحضارة العربية الإسلامية .

ولم يكن هذا التقدم الحضاري إلا نتيجة طبيعية لفكر ديني جديد تمكن من أن يدفع البشرية إلى أن تتبنى علمًا مصفى إلى حد كبير من الخرافة، وفنًا يسمو بكثير على مجرد الموروثات البشرية ، صحيح أن هذا الصفاء وهذا السمو لم يكونا مطلقين، لكنهما كانا قد أخذا في التحرّر المتزايد والمستمر حتى وإن شابت مسيرتهما كثير من الانتكاسات التي لا تزال تتوارد ،وربما تتنامى في بعض الأحيان، وربما تنسب نفسها إلى الإسلام في أحيان ليست بالقليلة.

ويدعم هذا التوجه اهتمام المسلمين بأحاديث النبي ﷺ الخاصة بالطب والتي تحولت مع الزمن إلى ما عرفه المسلمون بالطبّ النبوي ، فلا شك أن الأطباء المسلمين حينما سمعوا الحديث النبوي القائل : «**إن الله لم يخلق داءً إلا خلق له دواءً**»، انطلقوا بثقة كبيرة بالنفس وهم واثقون بأنهم سيجدون علاجًا لكل مرض من الأمراض التي واجهوها، وحققوا خطوات واسعة في مجال علوم التشريح والحساسية والبكتيريا وطب الأسنان وعلم الأجنة والتوليد وطب العيون والأمراض الباطنة وطب الأطفال وطب النفس والجراحة وأمراض جهاز البول

وعلم الأعشاب والأدوية.

ونحن نستطيع من مدارسة تاريخ الطب أن ندرك أن الإسلام كان أول دين يعترف بفكرة المرض منفصلة عن فكرة الخطيئة.

كذلك فإننا نستطيع من مدارسة تاريخ الطب أن ندرك أن الإسلام كان أول دين يفصل بين الكهانة والطب ، فقبل الإسلام كانت الفكرة السائدة بين البشر أن المرض شيطان يدخل جسم الإنسان عقابا له على معصية ارتكبها في حق الآلهة، وأن السبيل الوحيد للشفاء هو الصلاة (أيًا ما كانت طقوسها) لكي تطرد الصلاة (التي هي وسيلة لطلب الغفران) الشيطان، فإذا لم يشف المريض فمعنى ذلك أن إيمانه لايزال ضعيفا.

ينبئنا التاريخ كذلك أن الكنيسة ظلت طوال القرون الوسطى تمنع الناس من التداوي ، وتحارب كل من يحاولون التفكير العلمي وتحرق كتبهم،وأحيانًا ما كانت تضعهم على الخوازيق بتهمة السحر والشعوذة وتحدى إرادة الله.

ولم يحدث تغيير جذري في نظرة البشر إلى المرض إلا على يد تعاليم جديدة ولم تكن هذه التعاليم الجديدة إلا تعاليم الإسلام التي اتبعها المسلمون ووصلت أصداؤها إلى آخرين بحثوا في زمنهم عن التنوير ،فوجدوه عند المسلمين ،وتأثروا بتعاليم الإسلام .

ومن الإنصاف للإنسانية أن نشير إلى أن هذا التطور لم يكن ليتحقق من خلال تعاليم نظرية فحسب، وإنما كان بحاجة إلى قدوة تشخص السلوك وتبلور الفكر، والواقع أن سلوك الإسلام في هذا الصدد قد تبلور على أفضل صورة في سنّة النبيﷺ وسلوكه إزاء المرض.

فعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة جاءته جماعات من المرضى وذووهم يطلبون على يديه الشفاء، وعندئذ جاء رد الفعل الذي مثل القدوة وفتح الطريق إلى الاعتراف النبوي بالطب الحقيقي، فقد كان عليه السلام يذهب لزيارة المرضى، ويدعو لهم بالشفاء ويقول لهم: استدعوا الطبيب، وكان الناس يتعجبون ويقولون: «وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟» وكان يجيبهم إجابته التي نعرفها الآن ضمن الأحاديث الشريفة الصحيحة التي رواها كل من الترمذي وأبو داود: «**تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له الدواء**».

ومن الإنصاف أن نشير إلى هذه الحقيقة المهمة التي ركز عليها الرسول ﷺ وهي أن لكل مرض في هذه الدنيا علاجا يشفيه إلا داء واحدًا هو الهرم، أي كبر السن، وفي ذلك يروى حديث الرسول ﷺ في رواية أخرى للترمذي وأحمد على نحو أكثر تفصيلًا: «**إن الله لم ينزل داء إلا له دواء علمه مَنْ علم وجهله مَنْ جهل، فإذا أصيب دواء الداء برأ المرض بإذن الله**»، ويعني هذا بكل صراحة أنه إذا وجدت أمراض لا نعرف لها دواء حتى يومنا هذا ، فذلك راجع إلى قصور في علمنا ، وأن علينا بالتبعية أن نجتهد ونبحث حتى نجد لها العلاج الشافي.

وقد حسم الرسول ﷺ الإشكالية الفلسفية القديمة التي لا يزال يقع فيه كثيرون حتى الآن من الظنّ في تعارض فكرة السعي البشري من أجل الشفاء مع فكرة القبول بالقدر، وقد وردت في السنّة النبوية الشريفة واقعة تصور إدراك الرسول ﷺ لهذا المشكل وحله له، فقد جاء بعض من الصحابة يسألون النبي ﷺ: هل في دواء نتعاطاه ووقاية نتخذها هل تمنع من قدر الله؟ فقال : «**بل هي من قدر الله**».

وعلى المستوى الشخصي فقد روت كتب السيرة أن رسول الله ﷺ نفسه كان

يمرض، وتنُعت له الأنعات، أي الوصفات الطبية، وأنه كان يقول: «إني أمرض كرجلين منكم»، و كان لرسول الله ﷺ صديق طبيب هو الحارث بن كلدة كان يستشيره في أمور الطب.

وهكذا استقرّ في أذهان المسلمين الأوائل أن الرسل أنفسهم يمرضون على الرغم من أنهم معصومون من المعصية، وهكذا تكرس الفصل بين المرض والخطيئة، كما تكرس في الوقت ذاته الاعتراف بالطب وبفضل العلم والاجتهاد.

وعلى الرغم من وجود الكثير من التشابه بين القرآن الكريم والعهدين القديم والجديد، فيما يتعلق بالحياة الإنسانية وعلاقة البشر بخالقهم، فإننا نرى أن القرآن قد غير تماما من صورة المرض في ذهنيات المؤمنين بالنصوص الدينية المقدسة، كانت نصوص العهد القديم تقول بأن المرض هو عقاب على خيانة الإنسان لخالقه، حيث نقض عهده مع الإله وأطاع أو عبد معبودات غريبة.

كذلك كان العهد القديم لا يفرق بين الكاهن والطبيب، حيث تدلنا النصوص على أن الكاهن كان يقوم بفحص الأبرص لتحديد حالته الصحية.

ونرى في نصوص العهد القديم أنه كان على الكاهن أن يدرس بالتفصيل كيفية التعرف على خصائص البقع الجلدية غير النظيفة دينيا، وأنه يحدد إذا كان الجرح عميقا عن سطح الجلد، وإذا ما كان الشعر في منطقة الجرح قد أصبح أبيض أو محمرا... إلخ.

واقرأ على سبيل المثال هذا النص الذي يتحدث عن الطقوس الخاصة بتطهير الأبرص من الخطيئة :

«على الكاهن أن يأخذ حملا ذكرا ويقدمه مع بعض الزيت من أجل الذنب

الذي وقع، وعليه أن يلوح بهم أمام الإله ، ثم يذبح الحمل في المكان الذي يقتلون فيه الخطيئة الواقعة والفعل المحروق في المكان المقدس، حيث إن الذنب الواقع مثل الخطيئة الواقعة من اختصاص الكاهن...».

وفي نصوص أخرى تنسب إلى الإله أنه قالها لموسى ﷺ نجد حثًا للمرضى على تقديم خبز للإله، والأكل من خبز الإله، «فكلاهما أعظم قدسية من الأشياء المقدسة، لكنه لا يجب أن يقترب من الحجاب أو المذبح ، لأنه (أي المريض) وصمة قد تدنس معابدي لأنني أنا الرب الذي يقدسهم».

والواقع أن نصوص العهد القديم تكرس بشدة فكرة أن الشفاء عملية يبرأ بها المريض ويعود إلى حياته الطبيعية ثانية، وأنها عملية مرتبطة ارتباطا كبيرا بالسلطة الدينية... وهكذا كان المرض رمزًا للذنب، ورمزًا للعقاب، أما الشفاء فهو أن يستعيد المريض اكتماله الأخلاقي والبدني، وهكذا كان هناك تصور واضح لأن يكون المريض مدركا لخطيئته ؛ ولأنه عالم بعدم طاعته للإله، وبالتالي فإنّه يستحقُّ العقاب.

بل إن العهد القديم يكاد يصف العلاقة بين المرض والشفاء على أنها علاقة علة ومعلول، وأنها تخضع لقانون القصاص الإلهي: العين بالعين والسن بالسن، أي أن المرض كان ينظر إليه كشكل من أشكال العقاب الإلهي.

ثم جاء العهد الجديد بنظرة جديدة إلى الإنسان المريض وهي نظرة يمكن وصفها بأنها كانت نظرة رحيمة متسامحة، وأنها تقوم إلى حد كبير على نفس الأسس التي نعرفها عن طبيعة وعقيدة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويمثل المسيح ﷺ فيما تصوره الأدبيات الإسلامية والمسيحية (على حد سواء)

صورة المثل الأعلى للطبيب الروحاني ، فالنصوص المقدسة في القرآن الكريم والعهد الجديد تصوره معالجا ومعيدا للحياة وطبيبا روحيا، وتشير إلى أنه كان يبذل اهتماما خاصا للمصاب والمريض، أي للحالة البشرية.

لكن النصوصية مع هذا بقيت في إطار الإيمان بعقيدة أن الشفاء يتحقق بواسطة الطقوس الروحية كاللمس، فقد كان يكفي المريض أن يلمسه المسيح عيسى عليه السلام معيد الصحة والحياة.

لكن نصوص المسيحية ظلت تصور الأمراض شيئا مرتبطا بالشياطين، كما ظلت تعتبرها فسادا روحيا، وتتكرس في هذه النصوص فكرة أن الشيطان يسكن الروح البشرية من خلال انغماس الإنسان في المتع الحسية، وتتنامى هذه العقيدة حتى تتماهى مع فكرة أن جسد المسيح كان فداء لجشع الإنسان وطمعه.

وفي نصوص مسيحية كثيرة نرى المرض ، وقد صور على أنه نوع من الموت الجزئي، أو بلفظ العهد الجديد أن البعض قد مات:

«إن أي شخص يأكل ويشرب دون تمييز الصالح لجسده، فالأكل والشرب حكم إلهي واقع عليه، وهذا هو السبب في أن العديد من الناس ضعاف ومرضى، وأن بعضهم قد مات».

كذلك نرى النصوص المسيحية المقدسة تصور الموت الطبيعي على أنه «جزاء الخطيئة»، كما تصور هذه النصوص عملية فداء المسيح على أنه تغلبٌ على الموت بإعادة الحياة.

وفي العقيدة المسيحية تعتبر حياة المسيحي حياة الخلود، والنقيض لذلك هو الموت الأبدي، وبالطبع فإن الروح القدس تمثل القوة التي وراء هذه الحياة الأبدية،

تلك الروح القدس التي تحرك طقوس الشفاء والأدعية باسم المسيح عيسى التي تطرد الأرواح الشريرة.

في مقابل كل هذا نجد العقيدة الإسلامية وقد وضعت حدا واضحا بين الطبيب ورجل الدين، ولم تترك للكهان أو مَنْ يناظرهم ممارسة مهنة الطب.

ورغم أن القرآن يحذر المؤمن من دور الشيطان في إيجاد الفساد في الأرض، فإنّه يتخطى ما يوحي به الدين المسيحي مضيفا أمرين مهمين:

الأمر الأول: إشراك الإنسان نفسه في المسؤولية عن الصحة والمرض.

والأمر الثاني: بحث الإنسان عن الفهم والمعرفة في خلق الله كي يعطي لوجوده معنى.

وقد أكدت تعاليم الإسلام على أن الإنسان مسؤول عن حياته على الأرض وعلى أن المرض صورة من صور الجهل بالصحة والشفاء، وعلى أن الطب والعناية بالصحة أمران واجبان في إطار أن العمل الأساسي للمؤمن هو التعرف إلى الله ، بل إننا نجد القرآن يتحدث بوضوح عن الطريق والاتجاه الذي يجب أن يسلكه المؤمنون حتى يقفوا على معرفة الله.

والحق أن المفهوم الإسلامي للمرض والشفاء مثل مفهوما متقدما على تعاليم الديانات الأخرى، فهو يعتبر المرض شكلا من أشكال الجهل بالمخلوقات، ويشير إلى أن عملية تحقيق الشفاء تقتضي أن ندرس خلق الله والحقيقة العلمية في هذا الخلق.

وهنا تتبلور نظرة الإسلام إلى دور الشيطان في المرض، فهو ليس دورًا مباشرًا ولا موضعيًا، لكنه مرتبط بما هو أعمق من هذا فلسفة، إذ إن الانحراف والتزييف والفساد في خلق الله تمثل أعمالًا من قبيل عمل الشيطان، لأنها تتوافق مع المبدأ

الشيطاني للعصيان والتغطرس ضد خلق الله.

وعلى هذا، فإن على المريض المسلم أن يبحث عن العلاج ليكتشف الدواء لدائه، وبمعنى آخر ليكتشف حقيقة الخلق.

ولم يقف فضل الإسلام على فكرة الطب عند هذا الحد الذي طور من مفهوم البشرية لمعنى المرض ولقيمة الشفاء وإمكانه، وإنما بذلت تعاليم الإسلام جهدًا كبيرًا في سبيل إبعاد الطب عن الخرافات التي كانت عالقة به، وفصل الطبّ عن الخرافة ، مع أن البشرية كانت ترى هذه الخرافات ،وهي تصاحب العلاج وكأنها أمور صحية إجبارية، وكان هذا يتجلى في وضع التمائم من رؤوس الحيوانات، كما كان يتجلى بدرجات أخرى في الوشم، وقراءة الطالع والنجوم، وزجر الطير، والاستقسام والأزلام، وضرب القداح، وفي هذه الفكرة يقول رسول الله ﷺ : «**لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر**».

ويقول أيضًا : «**من علق تميمة فلا أتم الله له**».

وقد بلغ من حزم الإسلام في هذه الأمور أن الرسول ﷺ قال: «**من أتى كاهنًا أو عرافًا فآمن بما يقوله فقد كفر بما أنزل على محمد**».

وبمثل هذا الأسلوب الحازم القاطع وضع الإسلام حدًا فاصلًا بين الطب والكهانة، وكانت كلاهما حتى ذلك الحين (ولا تزال كذلك في بعض المجتمعات والثقافات ومنها مجتمعات إسلامية للأسف الشديد) مهنة واحدة حيث كان الطبيب هو الكاهن أو العراف.

لكن فضل الإسلام على الطب لا يوازي فضله على الممارسات الطبية ، وهو ما سنتناوله في الفصل التالي .

❊❊❊❊

الفصل الثاني
فضل الإسلام على الممارسات الطبية

ننتقل في هذا الفصل إلى جزئية أكثر تقدمًا وأقل تفصيلًا في حديثنا عن فضل الإسلام على الممارسات الطبية .

ولابد من أن نشير إلى حقيقة لا يصعب إدراكها على المثقف العادي وهي أنه يبدو لنا بوضوح أن التوجيه الإلهي للرسول ﷺ قد هداه مبكرًا إلى عدد من الأفكار الطبية السابقة للعصر الذي عاش فيه، وقد شملت هذه الأفكار قواعد المهنة وآدابها وجوهرها كذلك.

وضع الرسول ﷺ نواة فكرة حماية مهنة الطب من المشعوذين وأدعياء الطب، وذلك بإلزام مدعي الطب بالمسؤولية الجنائية عن ممارسته للطب، وهو ما عبر عنه قوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى فيما رواه أبو داود وابن ماجه والنسائي: «**من تطبب ولم يعلم منه طب قبل ذلك فهو ضامن**».

ومعنى تطبب أي: عالج وداوى، ومعنى الضامن أنه مسؤول عن خطئه وجريمته، فهذا الحديث نص صريح على معانٍ كثيرة نطلق عليها الآن ألفاظًا ومصطلحات مختلفة من قبيل: الاعتماد، والشهادة، والإجازة، والتأمين المهني ، والمسؤولية عن الخطأ المهني.

وكما أشرنا في الفصل السابق فقد كانت الكنيسة الغربية تحرم صناعة الطب ؛ لأن المرَض عقابٌ من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن يستحقه، وهو الاعتقاد الذي ظل سائدًا في الغرب حتى القرن الثاني عشر .

وكان الطبُّ في الجاهلية يقتصر معظمه على الكي بالنار واستئصال الأطراف الفاسدة والتداوي بالعسل ومنقوع بعض الأعشاب النباتية، واللجوء إلى بعض التعاويذ والتمائم على يد الكهان والعرافين

وفيما بعد الفتوحات الإسلامية في الشرق، اهتم العرب بأعمال الأطباء الإغريق والرومان القدماء أمثال أبقراط وجالينوس وديسقوريدوس التي كان السريان قد نقلوها إلى لغتهم في مدرسة جنديسابور التي فروا إليها هربًا من اضطهاد الأباطرة البيزنطيين للمذهب النسطوري الذي اعتنقوه.

ومع بداية العصر العباسي، انتعش العلم الطبي بعدما بدأ العرب في نقل المؤلفات الطبية من مصادرها اليونانية مباشرة، بعدما عرفوا ما في الترجمات السريانية من ضعف، وقد تم هذا على أيدي بعض الأطباء الذين حذقوا اليونانية كآل بختيشوع وحنين بن إسحاق ، ووصل التقدم في ممارسة الطب إلى حد أن بلغ عدد الأطباء في بغداد وحدها في زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله أكثر من ٨٦٠ طبيبًا .

كانت سنّة النبي ﷺ الفعلية (والقولية معها) ترشد إلى فكرة التخصص الدقيق في المهنة الطبية، فقد كان الرسول فيما رواه أبو داود وابن ماجه والنسائي إذا رأى أكثر من طبيب يزور مريضا يقول لهم: «**أيكم أطب بهذا**» ومعناه: إن على المريض أو أهله أن يبحثوا عمن هو أكثر دراية وتخصصا بهذا المرض، وعلى الأطباء أن يلتزموا بهذا المعنى فيما بينهم.

هدت تعاليم الرسول ﷺ المسلمين منذ عهد النبوة إلى فكرة جذرية فيما يتعلق بسياسات الحجر الصحي في مكافحة الأوبئة والأمراض المعدية كالكوليرا والطاعون والجدري قبل أن تعرفه الإنسانية،وقد جاء ذكر الطاعون أمام رسول

الله ﷺ فقال ما معناه: «**إذا سمعتم به بأرض لا تقدموا عليها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه**».

وهذه هي أمثل طريقة للوقاية من الأوبئة في عصرنا الحديث، إذ يمنع الدخول إلى المنطقة الموبوءة، كما يمنع مَنْ فيها من الخروج منها.

ففي مقابل هذا يكفي أن نذكر حادثة واحدة من التاريخ، إذ أنه عندما ظهر وباء الطاعون في فلورنسا (١٣٤٨) كان الناس في المناطق الموبوءة يلوذون بالفرار منه بأسرع ما يمكنهم وإلى أبعد ما يستطيعون، وقد أدى هذا الفرار المذعور إلى ازدياد رقعة الوباء حتى وصل إلى روسيا سنة ١٣٥٢، وكأنّه كان كما شبهه المؤرخون حريقا في غاب لم ينطفئ لهيبه إلا بعد أن أباد ربع سكان أوروبا.

وعلى نطاق أضيق من هذا كان رسول الله ﷺ يرشد إلى أهمية الحذر في مخالطة المرضى بالأمراض المعدية : «**لا يوردنّ ممرض على مصح**» ومعنى الحديث أنه لا يجوز أن يختلط المريض بمرض معد (وهو المـُمْرض) بالأصحاء، بل عليه أن يبقى بمعزل عنهم ، وعلى أهله والأطباء المعالجين والسلطة الطبية أن تبقيه بعيدًا عنهم حتى لا ينقل إليهم العدوى.

وقد روى أبو داود في سننه عن النبي ﷺ معنى مشابهًا في قوله: «**إن من القرف التلف**» والقرف هو مقارفة المريض أي الاختلاط به، والتلف هو الهلاك، أي العدوى والمرض.

ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ طبق بنفسه هذا المبدأ على المجذومين، إذ تروي كتب السيرة أنه جاءه رجل مجذوم لكي يبايعه فلما استأذن الرسول قال له عليه الصلاة والسلام: «**أبلغوه أنا قد بايعناه فليرجع**» .

ومن ذلك أيضًا ما يروى عن الرسول ﷺ : «اجعل بينك وبين المجذوم قدر رمح أو رمحين».

يمكن لنا القول بأن الفهم المتعدد لتعاليم الإسلام في «الحلال والحرام» كان في حد ذاته دافعًا للابتكار في الطب ، ونحن نعرف من ثقافتنا العامة أن الفنان المسلم ركز على الزخارف الإسلامية، في محاولة منه لتفادي التصوير الذي تعتقد بعض المذاهب الإسلامية في حرمته، وقد حدث شيء شبيه بهذا في الطب، فنحن نعرف أن الإنسانية كانت تدرك دور الخمر في تغييب العقل، وهو الدور الذي كان مساعدًا لممارس الطب على استخدامها في التخدير فيما قبل التدخلات الجراحية، لكن بعض العلماء المسلمين لما وجدوا شبهة للحرمة في هذا، بدؤوا محاولة ناجحة من أجل البحث عن مادة مخدرة بعيدة عن الشبهة، ومن هنا فقد اجتهد أطباء المسلمين في إيجاد المخدر البديل للخمر، وقادهم هذا إلى اكتشاف التخدير الحقيقي مع فقدان الوعي قبل الجراحة، وذلك باستعمال «القناب العربي».

ونحن لا نجد في التاريخ الحضاري ثقافة عنيت عناية فائقة بكل نواحي الحياة فيما يخص ما نسميه الآن «الطب الوقائي» على نحو ما نجد في الثقافة الإسلامية، ويكفي أن نشير إلى أن أول أبواب كتب الفقه جميعًا هو باب الطهارة باعتبارها ضرورة للصلاة.

وقد أمر الإسلام بالنظافة الشخصية كوسيلة للوقاية الصحية واعتبرها مكملة للإيمان: «النظافة شطر الإيمان» .

وقد حاربت تعاليم الإسلام الفكرة التي لا يزال بعض أتباع الأديان (وبعض أتباع الإسلام للأسف) يشيعونها من أن بعض صور القذارة صورة من صور التواضع لله والتقرب إليه.

وقد أشار الإسلام إلى تلوث الأطعمة والملابس والأيدي، وحبب في الطهارة ونهي عن النجس والقذارة، وحدد المواد النجسة وذكر منها: القيح (أي الصديد) والبراز والقيء ولعاب الكلب وجسم الخنزير، وكل شيء عفن مثل بقايا الحيوان.

وعرّف الإسلام الطهارة بأنها الشيء الخالي من هذه النجاسات، وحدد الإسلام منذ مرحلة مبكرة طرق الطهارة بالغسيل بالماء الجاري، أو الحرق بالنار، أو الغلي في الماء، أو التجفيف.

ولم يجعل الإسلام تعاليمه عن النظافة عامة ومطلقة فحسب ، بل إنّه دقق على نظافة كل عضو من جسم الإنسان يمكن أن يكون منفذا للمرض أو مصدرا له.

وتتضمن تعاليم الإسلام أوامر محددة تكفل القضاء على بعض الأمراض المتوطنة.

ومن ذلك ما رواه ابن ماجه من أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم فإن عامة الوسواس منه**».

ويقول أيضًا: «**اتقوا الملاعن الثلاث : التبرز في الظل، وفي الموارد، وفي طريق الناس**».

ونحن نعرف الآن أن السبب الرئيسي في انتشار مرض البلهارسيا هو «تبول المريض» في الماء، خاصة الماء الراكد (الدائم).

وتثبت أقوال الرسول ﷺ أن الله سبحانه وتعالى ألهمه كثيرًا من أسرار علم الوراثة، ويصعب تصديق أن تكون خلفية الخبرة البشرية وحدها هي التي دفعت الرسول ﷺ إلى أن ينطق ببعض ما نطق به في هذا المجال من قبيل إشاراته إلى أن بعض العاهات الجسيمة تنتقل من جيل إلى جيل، وذلك حيث قال ﷺ في حديث

رواه ابن ماجه: «تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس» .

أما نظريات القرآن حول خلق الإنسان ومراحل تكوينه ، فتمثل معجزة من المعجزات التي لا يزال المتخصصون يقفون أمامها مشدوهين .

وشبيه بهذا حديث الرجل الذي سأل النبي ﷺ عن ابنه الذي جاء أسود اللون، فسأله النبي عن لون الجمال التي لديه، ليستدل على أنه كان ثمة معرفة ما يتوارث وانتقال الخصائص الوراثية من جيل إلى آخر.

وقد دفعت روح الإسلام الداعية إلى احترام الشيخوخة ورعايتها إلى النشأة المبكرة لطب المسنين كتخصص طبي، لا كشأن اجتماعي فحسب، وقد كان في بعض المستشفيات الإسلامية قسم خاص بكبار السن رفعت عليه لوحة خطت عليها الآية الكريمة: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء] .

وبلغت عناية الإسلام بسرّ المهنة وبشرف الممارسة مرحلة فائقة، ومع هذا فإن الإسلام لم يترك الأمر على إطلاقه،إذ إن هناك حالات في الشريعة الإسلامية يكون إفشاء السر واجبا، وذلك في الحالة التي يكون فيها كتم السرّ مؤديا إلى مفسدة، فإذا عهد شخص بسر إلى آخر، مضمونه ارتكاب جريمة زنى أو سرقة أو قتل أو الحصول على رخصة قيادة بدون حق كما في حالات ضعف البصر الشديد، فعلى مَنْ عرف مثل هذا السر أن يفشيه ، فقد يكون في إفشائه مصلحة ترجى عسى مَنْ سمع بالخبر قبل وقوع المفسدة أن يهب لمنع تلك المفسدة، أو إذا وقعت تلك المفسدة يساعد في الحقيقة للمصلحة العامة، كما روي عن الرسول ﷺ حيث قال: «**المجالس بالأمانة إلا ثلاثة: مجلس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطع مالًا بغير حق**» (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

والواقع أن مقاربة تعاليم الإسلام لفكرة سر المهنة تعكس فكرا اجتماعيا يتخطى فكرة انحصار مسؤولية الطبيب في المعالجة إلى الحرص على أن تتسع كي يكون مشاركا في المشاكل المجتمعية و الأسرية .

أشير أخيرا إلى فكرتين عبقريتين أوردهما الفيلسوف البريطاني برنارد شو في مقدمة كتابه «حيرة طبيب».

• في الفكرة الأولى يشير برنارد شو أن الاستعمار البريطاني عندما احتل إحدى الجزر وضع خطة لتغيير دين السكان ،فأرسل وفود المبشرين ليبعدوهم عن الإسلام.لكن النتيجة جاءت كارثية .

وهو يقول:

« إن الاستعمار - للأسف الشديد - قد نجح في ذلك، لكن كانت النتيجة هي تفشي الأوبئة والأمراض الفتاكة بينهم، بسبب بعدهم عن تعاليم الإسلام التي كانت تأمرهم بالطهارة والنظافة على كل شيء إلى حد التدقيق على تقليم الأظافر وتنظيف ما تحتها، ثم العناية بدفن القلامات في التراب» .

كذلك أجاد هذا الأديب البريطاني العظيم وصف الصعوبة التي كانت تواجه الدول الغربية من أجل إقناع الناس بالطبّ وجدواه في مواجهة حث الإسلام على الصحة والطبّ في كتابه «حيرة طبيب» حيث قال:

«كان الناس يستغنون عن الأطباء ويوكلون العلاج إلى العناية الإلهية، ولم يمكن التخلص من هذا الاعتقاد الذي كان سائدا في بريطانيا حتى القرن التاسع عشر إلا بسنّ قانون يقضي بعقاب الأب الذي يموت ولده دون أن يعرضه على الطبيب وذلك بحبسه لمدة ستة أشهر».

وعلى هذا النحو نستطيع أن ندرك حدود القيمة الفكرية والعلمية للإسلام ودوره في بعث الحضارة الطبية على نحو ما نعيشها اليوم.

الفصل الثالث
مكانة الطبّ الإسلامي في تاريخ الطبّ

من الإنصاف أن نقول: إننا لا نستطيع أن نتصور مدى الإنجاز الكمي والنوعي الذي أحرزه الطب في ظل الحضارة العربية والإسلامية لأنه إنجاز ضخم من كافة الزوايا، ولا يمكن لنا إدراكه إلا إذا أعدنا مقارنة ما كان عليه الطب العربي قبل الحضارة العربية والإسلامية وما أصبح عليه بعدها، وقد سبقنا إلى بلورة هذا المعنى المستشرق الفرنسي الكبير لوكلير حين تحدث عن إنجاز الحضارة العربية في مجال الطب ثم لخص هذا الإنجاز في قوله:

«كانت حصيلتهم من العلم خلال القرن الثامن لا تتجاوز ترجمة مؤلف واحد في الطب وبعض الكتب في الكيمياء، وينتهي القرن التاسع، وقد أحاطوا بكل علوم الإغريق حتى أنجبوا أساتذة فاقوا أساتذتهم».

وإذا أردنا أن يكون لحديثنا عن مكانة الطبّ الإسلامي في تاريخ الطبّ أن يكون حاسما في دلالاته فلا بد لنا أن نتساءل : هل أضاف العرب إلى ما كان متاحا من الطب السابق عليهم ؟

ويبدو لي أن الإجابة على مثل هذا السؤال تقتضي بحثًا في قيمة الطب الذي وجد عند العرب قبل أن يتصلوا بالطب اليوناني، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها تقتضي البحث في المستوى الذي وصلت إليه المعارف الطبية عند اليونان وعند العرب في وقت محدد كبداية القرن الرابع عشر مثلًا، فإذا كانت معارف العرب الطبية قد تفوقت على معارف اليونان في الوقت نفسه، فإن في هذا وحده دليلًا على التقدم الذي أحرزه الطب على يد العرب، وليس من شك في أن هذا قد حدث

بالفعل، ذلك أن المعارف الطبية العربية حين وصلت إلى أوج ازدهارها كانت سابقة بمراحل كثيرة لما نما عند الأوربيين جميعا من معرفة بالطب في ذلك الوقت.

ربما كان من الأوفق أن نتأمل جملة قصيرة لأحد كبار أساتذة الطب العرب في العصر الحديث، وهو الدكتور محمد كامل حسين الذي حقق جهود الرازي الطبية، وهو في أكثر من موضع من كتاباته يذهب إلى أنه: «لم يكن في العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبي يعتد به إلا ما كان منه عند العرب. وما عند غيرهم لم يكن إلا نقلا عنهم واحتذاء لهم. ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب علما وعملا وتنظيما».

وهو يردف هذا التقرير الواضح الصريح بقوله:

«هذه حقيقة تاريخية لا نزاع فيها».

أما الدكتور إبراهيم بيومي مدكور أستاذ الفلسفة فيلخص بنظرته الموسوعية المستوعبة ما انتهت إليه الدراسات والبحوث حول الطب العربي ويقول:

«لم يبق اليوم شك في أن هناك طبًّا عربيا، عُرف بمنهجه وبموضوعه، واشتهر بآرائه ونظرياته، وقام على أمره نفر من كبار الأطباء، ووضعت فيه بحوث ومؤلفات تعد بين المؤلفات الطبية الهامة في التاريخ قديمه وحديثه، واعتبرت ثروة بشرية أفادت منها ثقافات مختلفة، أخذ هذا الطب وأعطى، أخذ عن طب اليونان، وعن بعض البحوث الطبية في فارس والهند، وأضاف إليها ما أضاف، وأضحى طبا عربيا خالصا. ثم أعطى الثقافات المعاصرة له، من سريانية، وعبرية، ولاتينية، وأفادت منه ما أفادت.

«عمّر هذا الطب طويلا، فقد ظهر في القرن الثامن الميلادي، وامتد إلى التاريخ

المعاصر. درس في بعض المعاهد الأوروبية إلى القرن السابع عشر، وكان عماد الدراسات الطبية في بعض المعاهد العربية إلى أخريات القرن الماضي، ولا يزال يعول عليه حتى الآن في باكستان».

والإشارة هنا إلى كتاب القانون لابن سينا الذي كان لا يزال يدرس في تلك الدولة.

وقد عارض جورج سارتون القول بأن العرب ما هم إلا نقلة مهرة للعلوم ولم يضيفوا إليها :

« إن بعض الغربيين الذين يستخفون بما أسداه الشرق إلى العمران، يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئًا... هذا الرأي خطأ... لو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية، ولولا إضافات العرب الهامة، لتوقف سير المدنية بضعة قرون » .

ومع هذا التمايز الواضح للطب العربي عما سبقه فإن الدكتور محمد كامل حسين ظل يرى الخطأ في أن نتحدث عن الطب من خلال زاوية القومية أو الجنس البشري الذي تولاه، وهو لهذا يطالب في أكثر من كتاب من كتبه بأن يكون التفكير في تاريخ الطب على وجه العموم مبنيًا على تأمل نمط التفكير الحاكم للعلم الطبي لا على جنسية القائمين به، ومن ثم فإنّه يرى أن الطب اليوناني والعربي يمثلان عصرا واحدا، يتميز بتفكير متشابه جدا. والتشابه في التفكير لا يكون عرضا ولا يراد قسرا، وإنما حمل العرب لواء النهوض بالطب اليوناني، لأنهم كانوا مهيئين لذلك من قبل عقليا وعلميا.

وفي أحد المواضع يبلور محمد كامل حسين هذه الفكرة بقوله:

«والحقُّ أنه يجب علينا ألا نتحدث عن الطب اليوناني والعربي، بل يجب أن نتحدث عنهما على أنهما يمثلان عصرا واحدا من التفكير الطبي، وهو عصر الخبرة المنظمة عقليا، وهو عصر دام عشرين قرنا. وقد نسميه طبّ أبقراط وجالينوس والرازي وابن سينا. وضع أبقراط كيانه ومنهجه. ثم فصله، وفرع عليه جالينوس، ومارسه الرازي، ونسقه وأوضحه ابن سينا إيضاحا ليس بعده مزيد. إلى أن عرف الناس العلم التجريبي».

وننتقل إلى السؤال المنطقي الذي يبحث في طب العرب فيما قبل اتصالهم بالطب اليوناني.

يرى الدكتور إبراهيم مدكور (١٩٩٥) أنه «كان للعرب في جاهليتهم تطبيب ووصفات علاجية اكتسبوها من تجربتهم الخاصة، أو استمدوها من تجارب جيرانهم. وكان لهم ولوع ببعض الحشائش والعقاقير، كالشيح والقيصوم. وامتدّ قدر من هذا إلى صدر الإسلام، ولم ير المسلمون غضاضة في أن يفيدوا منه، وزادت الفتوحات الإسلامية هذه الثروة التقليدية، وأضافت إليها تجارب شعوب أخرى. إلا أن هذا كله لا يعد من علم الطب في شيء، وما أشبهه بما نسميه «الوصفات البلدية» التي لا تزال تحيا بيننا إلى اليوم» .

«ولم يبدأ البحث الطبي المنظم لدى العرب إلا في أخريات القرن الأول للهجرة، ودفعته الحضارة الجديدة على أيدي العباسيين إلى الأمام شيئا فشيئا. فلم ينشأ الطب العربي دفعة واحدة، بل نما وترعرع على مر الزمن، وأخذ عن مدرستين طبيتين سابقتين، هما مدرسة الإسكندرية، ومدرسة جنديسابور».

ولابد لنا إذًا من أن نسعى للتعرف على السمة الغالبة على الإضافات أو الإسهامات العربية التي جرى تراكمها على الخبرة الطبية التي نقلها العرب عن

اليونان من خلال هذه المسارات المختلفة .

يبدو لي أن أدق عبارة تقال في هذا الصدد هي أن الأطباء العرب قد مارسوا النقد تجاه ما نقل إليهم، كما مارسوا توسعة العلم الطبي وإعادة كتابته وإعادة تنظيمه وتبويبه، وفي هذا الصدد يطيب لي أن أنقل عن محمد كامل حسين (١٩٧٧) قوله:

«الواقع أن كبار الأطباء العرب، مع إيمانهم بالكليات الطبية كما تصورها الإغريق، ومع إعجابهم الشديد بالفاضلين (أبقراط وجالينوس) لم يترددوا في التنبيه على خطئهما حين يخطئان.

وللرازي (٩٣٢) في كتاب الفصول مواقف ثلاثة من جالينوس وأبقراط :

- و(هو) يخطئ أبقراط في صراحة عنيفة في قوله :إن ماء الاستسقاء يصل إلى الرئة فيزيد السعال.

- ويخطئه في أن ذبول الجسم يزيد رواسب البول، ويقول: «والذي عندي أن ذلك خطأ لا يجوز أبدا». ويعلل رأيه هذا تعليلا لطيفا.

- وفي بعض المواضع يرى الرازي أن يجرب ما قال به الفاضلان قبل أن يقطع في قولهما برأي.

- ونراه يتفق مع جالينوس في قوله عن الحميات: إن بعضها يكون عن ورم ، وبعضها بغير ورم. ولكنه يعلق على ذلك بقوله: هذا تحقيق رأينا في أنا قسمنا الحميات إلى قسمين، فقلنا «الحميات إما مرض أو عرض»، وهو التقسيم الذي يطابق الطب الحديث، وهو (في رأي محمد كامل حسين) من غير شكّ أوضح وأصدق من قول جالينوس».

ونمضي مع السؤال المنطقي الذي يتوارد بحكم التفكير المتصل في طبيعة الإضافة التي أضافها العرب إلى الطب اليوناني، ومن السهل أن نذكر عددًا من الكشوف العربية المعروفة ، وهو ما ستتناوله بإيجاز في الفصول التالية ، ولكن الأهم من هذا أن نشير إلى حقيقة أنه لم يكن من أهداف الأطباء العرب أن يسبقوا القدماء فيما قالوه. وإنما هم قد أخذوا يمارسون المهنة ويطابقون بينها وبين ما وجدوه من علم أبقراط وجالينوس، فأبقوا على ما هو صواب، ونبذوا ما هو خطأ، وفي هذا الصدد فإن محمد كامل حسين يرى أن:

«ما فعله الرازي (٩٣٢) في الطب الإكلينيكي، وما فعله ابن سينا (١٠٣٧) في تنسيق العلم الطبي وإيضاحه، أكثر كثيرا مما فعله هيروفيليس وجالينوس بطب أبقراط».

ويوافق الدكتور إبراهيم مدكور زميله الدكتور محمد كامل حسين في القول بأن مرحلة الأصالة والابتكار كانت بمثابة ثالثة المراحل الزمنية التي مرّ بها الطب العربي وأنها كانت بمثابة مرحلة النقد والتمحيص، والبحث والتجربة، والكشف والاختراع، وهو يتحدث في هذا المعنى فيقول:

«هي مرحلة الطب العربي في صورته الكاملة، وقد سميت بحق العصر الذهبي للطب العربي. بدأت في القرن العاشر الميلادي، واستمرت إلى نهاية القرن الثاني عشر. ظهر فيها أطباء أعلام، منهم موسوعيون أحاطوا بالطب في جوانبه المختلفة، ومنهم متخصصون في بعض الفروع كالجراحة وطب العيون. نقدوا كبار أطباء اليونان، وأكملوا ما فاتهم وأصلحوا أخطاءهم. بحثوا وجربوا، فكشفوا عن الجديد والمبتكر في ميدان التشخيص والعلاج. ووضعوا كتبا ومؤلفات استرعت الأنظار، وعدت حلقة هامة من حلقات الفكر الطبي في التاريخ».

«ومتى بلغت حضارة أوجها، أخذت تتراجع شيئا فشيئا، ولم تضف القرون الستة التالية للقرن الثاني عشر الميلادي إلى الطبّ العربي شيئا يذكر، اللهم إلا اكتشاف الدورة الدموية الصغرى».

ونأتي إلى زاوية أخرى من زوايا تصوير الحقيقة التاريخية وهي الزاوية التي نظر منها الدكتور بول غليونجي إلى نشأة تدوين العلوم الطبية ، وقد صور الدكتور غليونجي الأمر تصويرًا مختلفًا عن تصوير زملائه ، وربط هذه البدايات الموفقة للطب العربي بالترجمة المباشرة عن مدرسة الإسكندرية التي آل إليها دور الحفاظ على العلم اليوناني في ذلك العصر، وهو يقول:

«كان الطبّ في مستهل القرن السابع علمًا من العلوم التي اشتهرت بها مدرسة الإسكندرية وقد أنشئت بهذه المدينة – بعد عهد البطالمة – مدرسة طبية معتمدة على دراسة ستة عشر كتابًا من كتب جالينوس، اجتذب بريقها نظر الفاتحين العرب، فدعا الخلفاء علماءها إلى عاصمتهم حيث وضعت باكورة المؤلفات العربية في مجال العلم، وبصفة خاصة في الكيمياء والفلك. وفي هذا العصر تم نقل أول كتاب طبي إلى العربية، وهو (كناشة) أهرن القس».

ويحقق الدكتور بول غليونجي نقطة مهمة تدلنا بلغة العصر الحاضر على ما نسميه قدرة النظم الحاكمة على توفير العوامل المشجعة لنمو المناخ العلمي الكفيل بتقدم العلم، وهو ما تمثل في قدرة الخلفاء العباسيين على الفصل بين دين العلماء والمترجمين ودين الدولة، وهو يقول في هذا المعنى:

«وعندما نقل العباسيون عاصمة الدولة إلى بغداد، اتخذت الترجمة فيها حجمًا غير مألوف ولا سيما في «دار الحكمة» التي أسسها الخليفة المأمون (٨١٣م) وحشد فيها جيوشًا من المترجمين انكبوا على تعريب تراث الإغريق والسريان والهنود. هذا

وإن كانت التراجم تمت بجهود غير المسلمين - وهم الملمون باللغات غير العربية - فإن الفضل الأول في المبادرة يرجع أساسًا إلى بعد نظر الخلفاء المستنيرين الذين أرادوها».

وقد انتبه الدكتور بول غليونجي إلى ظاهرة الازدهار الموازي للمدارس العلمية الإسلامية حيث قال:

«وبعد أن غرس مترجمو بغداد بذور العلم، بدأ الطب يزدهر تباعًا في كل الإمارات الإسلامية، كل منها تنافس الأخرى لا في الشكل فقط ولكن بصفة خاصة في ميادين العلم والفكر».

ويضرب الدكتور بول غليونجي مثلا على الازدهار المتوازي للمدارس العلمية في الطب الإسلامي بما حدث في الأندلس وفي قرطبة على وجه الخصوص.

«ولا عجب في أن تظهر بوادر هذا الازدهار حتى في أقصى أطراف الدولة الإسلامية، فإن هذه البلاد كانت أقرب إلى الاستقلال وإلى سيطرة السلاطين من غيرها. فقد أسس بنو أمية في الغرب مدينة قرطبة - جوهرة العالم - في سنة ٩٢٩م وقد بلغ الاهتمام بالعلم في هذه العاصمة أن مكتبتها قد ضمت ٤٠٠.٠٠٠ مجلد وأن ابن رشد قال ما يؤثر عنه : «إنه إذا أريد بيع كتب أي من العلماء فيجدر أن تحمل إلى قرطبة حيث يوجد يقينا من يقتنيها» وقد ظهر في خلال هذه الحقبة أكبر فلاسفة العرب وأطبائهم».

وقد لاحظ الأستاذ شادي الأيوبي في مقال له موقع الجزيرة أن أكثر ما لفت نظر الطبيب اليوناني سخوريتسانيتيس خلال أبحاثه، هو الاكتشافات الهامة التي قام بها علماء مسلمون خاصة بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين ثم نُسبت بعد ذلك إلى علماء غربيين .

ومن الإنجازات التي حققها الطب الإسلامي دون أن تنسب إلى عَلْم بعينه :

- الاهتمام بسؤال المريض عما يشكو منه واحترام شكواه .
- الاهتمام بالفحص الجسدي والعلامات الحيوية ومنها : جس النبض والزفير والشهيق .
- التدقيق في لون البشرة، والاعتماد عليه .
- أسلوب مراقبة البول.
- الربط بين شكل الأظافر ومرض السل .

وفي مجال العلاجات:

- وصف علاج لليرقان والهواء الأصفر .
- استعمال الأفيون بمقادير مختلفة لعلاج الجنون.
- صب الماء البارد لإيقاف النزيف.
- علاج خلع الكتف بردّه فجائيًا.
- استخدام بعض دود العلق في علاج بعض الأمراض الجلدية .
- الكي بقضيب معدني لإيقاف النزيف من الجروح وحمايتها من العدوى.

وفي مجال الربط بين المشاهدات والتشخيص والتفكير العلمي غير النمطي :

- ما لاحظوه من أن الأطعمة الدسمة والأجبان والألبان وسوء عمل الكلى تتسبب في تشكل الحصى فيها.
- إرجاع سبب مرض البواسير إلى قبض المعدة، والنصح بتناول المأكولات النباتية علاجًا لها .
- البراعة في الحجامة والكي وبمنطق زمانهم فقد كانتا من الوسائل العلاجية الشائعة التي استخدموها قديمًا، على نطاق واسع لعلاج العديد من الأمراض.

- استخدام الحجامة لإزالة الأخلاط السيئة من جسم المريض واستخدم الفصد لإزالة دخول الدم من الأوردة مباشرة.

○ «الحجامة الرطبة» : تتم عن طريق شق بسيط في الجلد وسحب الدم بواسطة كوب دافئ. تتسبب الحرارة والشفط إلى الكوب الزجاجي في خروج الدم إلى سطح الجلد وإزالته.

○ «الحجامة الجافة»: باستخدام الكوب الساخن دون شقّ الجلد، في مناطق معينة من جسم المريض لتخفيف الألم والحكّة،وغيرها من الأمراض الشائعة.



نموذج سريع للتفوق العربي
في : طب وجراحة العيون

• كان أول أسباب هذا التفوق ما نجح فيه العلماء العرب من فهم البصريات على نحو غير مسبوق ونحن نعرف ما هو مشهور الآن من اعتقاد القدامى في أن الرؤية تحدث نتيجة انبعاث أشعة من العين تسمح برؤية الأشياء.

• فلما جاء القرن الحادي عشر، خالف ابن الهيثم تلك النظرية، وأثبت خطأها عبر جهاز بصري . ولا شك في أن تشريح ابن الهيثم للعين، قد ساعد على وضع أساس نظريته في تكون الصورة، والتي شرحها عبر إسقاط أشعة الضوء خلال وسطين مختلفي الكثافة، وهو ما يعني أنه أثبت نظريته بالتجارب المعملية . وفي القرن الثاني عشر، ترجم كتابه المناظر إلى اللاتينية، وظل يدرّس في العالم الإسلامي وأوروبا على حد سواء، حتى القرن السابع عشر.

• درس المسلمون أعين الحيوانات، وعرفوا منها أن حركة مقلة العين سببها انقباض عضلات العين، أما حركة الحدقة فسببها انقباض وانبساط القزحية .

• وضع علي بن عيسى الكحال كتابًا سماه «رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة وأمراضها الباطنة» ، ترجم إلى اللاتينية، وكان له أثره في أوروبا .

• ألف صلاح الدين بن يوسف الكحال كتابه «نور العيون وجامع الفنون» الذي وصف بأنه أكبر مرجع جامع في أمراض العين، واشتمل على وصف العين والإبصار، وأمراض العين وأسبابها وأعراضها، وكيفية الحفاظ على صحة العين، إضافة إلى الأمراض التي تصيب الجفون والملتحمة والقرنية والحدقة، والأدوية المستخدمة في علاجها.

كان للجراحة أهميتها في علاج أمراض العين كالرمد الحبيبي وإعتام عدسة العين ، وقد كان الأطباء المسلمون هم أول من أجرى جراحات المياه البيضاء (الكاتاركت) .

• من الطريف أنه لما كان من المضاعفات الشائعة لمرض الرمد الحبيبي إصابة أنسجة قرنية العين، فقد اعتقد الأطباء المسلمون أن تلك الإصابة هي سبب المرض، لذا لجؤوا إلى كحت تلك الأنسجة جراحيًا. كانوا يقومون بتلك الجراحة عن طريق استخدام جهاز يبقي العين مفتوحة خلال الجراحة، ومبضع رقيق جدا للاستئصال.

وهناك تقنية أخرى كانت تستخدم لعلاج مضاعفات الرمد الحبيبي، هي الظفرة (pterygium) لإزالة الأجزاء الثلاثية الشكل من الملتحمة البصلية على القرنية . وكانت تتم عن طريق رفع الجزء المصاب بخطافات صغيرة، ثم القطع بمبضع صغير.

كلتا الجراحتين كانتا مؤلمتين للغاية للمرضى، وتتطلبان مهارة في التنفيذ من الطبيب أو مساعديه .

• اعتقد الأطباء المسلمون أن إعتام عدسة العين ناجم عن الغشاء السائل الذي يقع بين العدسة والبؤبؤ ، وكانت الجراحة العلاجية التي يجرونها لهذه الحالة تتم بإجراء شقّ صغير في بياض العين بمبضع، وإدخال أنبوب دقيق لدفع إعتام العدسة جانبًا. وبعد انتهاء الجراحة، تغسل العين بمحلول ملحي، وتضمد بقطعة من القطن غمست في محلول من زيت الورود وبياض البيض، ولما كان هناك قلق من أن يعود الإعتام، من الجانب ليعتلي العدسة مجددًا، فقد كان الجراحون ينصحون المرضى بأن يستلقوا على ظهورهم لأيام بعد الجراحة.

الفصل الرابع
أسباب نبوغ الطب الإسلامي

أحب أن أبدأ بعرض آرائي الخاصة في أسباب نبوغ هذا الطب العربي ووصوله إلى ما وصل إليه طيلة هذه القرون التي بقيّ فيها على القمة، ولعلي أتجاوز بعض الشيء ،فأستخدمُ مصطلحات العصر الحاضر للحكم على إنجازات ذلك العهد، وفي هذا الصدد، فإني أفضل أن ألخص هذه الأسباب في عجالة على النحو التالي .

العامل الأول : الإرادة السياسية :

أضيف هنا إلى ما تحدثنا به من قبل عن سياسة الرسول ﷺ وعن سياسات الخلفاء الراشدين والأمويين من بعدهما ما حفلت به عصور هارون الرشيد والمأمون والمعتصم من طفرة غير مسبوقة ولا ملحوقة في إرادة النجاح في العلم والطب وغيرهما من ميادين الحضارة .

ولست في حاجة إلى أن أقرر أو أكرر الحديث عن مدى التحمس والإيمان والدقة في هذه الإرادة فالإنجاز الناشئ عنها هو الفيصل .

العامل الثاني : تفوق السياسة العلمية :

فليس من قبيل المبالغة القول بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت أكثر الحضارات اهتمامًا بالسياسة العلمية، فقد كان العلم بكل صوره يظلل سياساتها وإستراتيجياتها كما كان من ناحية أخرى يستظل بظلها رغم كل ما كان ينسب إلى العلماء من زيغ في العقيدة ، وهذا موضوع بحث طويل تناولناه في موضع آخر .

ونحن على سبيل المثال نرى كتاب التاريخ العام حين يتناولون تاريخ أي حاكم

مسلم يتعرضون لاهتماماته العلمية واهتمامه بالعلماء ولعلاقاته معهم بكثير من التفصيل، وليس هذا بدعًا من الأمر فقد كانت سلوكيات هؤلاء الحكام تتشابك وتشتبك مع العلم على الدوام، وإذا حدث أن قرأنا لأحد من المؤرخين عن تراجع اهتمام حاكم ما بالعلم والعلماء ،فإنما يأتي هذا مقارنة بسلفه الذي يكون قد بلغ الغاية في هذا الاهتمام.

وليس هذا الكتاب بالمقام الأوفى للحديث عن درجات اهتمام الحكام المسلمين بالسياسات العلمية ، ولكني مع هذا لابد أن أذكر مثلًا مهما وهو أن الناس قد شهدوا في بغداد نموذجا كونيا لم يعرفه التاريخ من قبل ، شهدوا أمة فاتحة منتصرة تملي شروط الصلح على المغلوبين، فتطلب إليهم ضمن ما تطلب أن يقدموا لها كتب العلم والفلسفة والطب كغرامة حربية، وهذا هو ما فعله العرب في صلحهم مع الروم، وهذا وحده دليل قاطع على أن العرب كانوا على استعداد لقبول هذه العلوم. وأنهم كانوا على قدر من التقدم الفكري يسمح لهم باستيعاب هذه العلوم.

ولست بحاجة بعد هذا إلى إعادة التذكير بجوهر ما فعله سيدنا رسول الله ﷺ (٦٣٢) بعد أن انتصر في أول غزوة حربية وهي غزوة بدر حين جعل محو الأمية أحد البدائل أمام الأسرى من الأعداء حتى ينالوا حريتهم.

العامل الثالث : التكوين المتميز والإعداد الوئيد للأساتذة :

(وهو ما نطلق عليه الآن سياسة تكوين المدارس العلمية) .

تفوقت الحضارة الإسلامية في إعداد الأساتذة والباحثين في مجال الطب على نحو مذهل ، وذلك من قبل أن تنشأ تقاليد الجامعة وينشأ مفهوم تكوين العلماء، وجاء هذا الإنجاز في تكامله متفوقًا على اليونان ومدرسة الإسكندرية ، ولم يكن هذا التفوق نتيجة تلقائية للاهتمام بالعلم فحسب، ولكنه كان نتيجة مؤكدة التحقق

بعد وصول المجتمع العلمي إلى درجات متقدمة من التنظيم والمأسسة (أي تكوين المؤسسات)، وهو ما تجلى على سبيل المثال في مدارس الفقه وعلاقتها بعلوم الحديث وعلوم اللغة واحتياجها الشديد إلى إتقان كثير من العلوم التي تكفل للفقيه التمكن من علمه وقدرته على الإفتاء، وواكب هذا الاهتمام اهتمام موازٍ بتأسيس أصول العلم، وهو ما تجلى بصفة ساطعة حين أسس الإمام الشافعي علم «أصول الفقه».

كانت النتيجة أن حدث نهج مماثل حتى فيما يتعلق بإعداد الأساتذة الأطباء لأنفسهم في هذا الصدد وهنا أستطيع أن أنقل عن الدكتور محمد كامل حسين تصويره للتكوين العلمي الذي حظي به الطبيب العربي الكبير أبو بكر الرازي أو الذي حرص عليه في تكوينه لنفسه:

«أعد الرازي (٩٣٢) نفسه إعدادا حسنا ، درس الطب اليوناني دراسة وافية، إذ كان رأيه أن العلم النظري أساس الطب التطبيقي ، ويجب أن يسبقه. فهو يقول في كتاب الفصول: «إن قليل المشاهدة المطلع على الكتب خير ممن لم يعرف الكتب على ألا يكون عديم المشاهدة» ويقول: «مَنْ قرأ كتب أبقراط ولم يخدم خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط» ويقول في امتحان الطبيب: «أول ما تسأله عنه التشريح ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس، وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء، فإن لم يكن عنده فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى».

ولعل هذه الفكرة كانت هي أساس التقليد الجامعي الحالي الذي لا يسمح للراسب في التحريري بأن يدخل الامتحانات العملية .

كان الرازي واسع الاطلاع وكان ينصح الأطباء بذلك ، وكان هذا العالم يقول بوضوح : «إنما أدرك مَنْ أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين

ألوف من الرجال. فإذا اقتدى المقتدى أثرهم صار كمن أدركهم كلهم في زمان قصير. وصار كمن قد عمر تلك السنين».

وقد لخص كامل حسين تجربة أبي بكر الرازي في هذه الجزئية فقال:

«ولا شك أنه كان أستاذا بارعا. كان له نظام مستقر واضح في تعليم الطب النظري والطب الإكلينيكي. وله رأي واضح في امتحان الأطباء. ووضع نظاما لتنسيق أسماء الأدوية باللغات اليونانية والسريانية والعربية والفارسية والهندية ومقاديرها».

العامل الرابع: الإيمان بفكرة المؤسسة :

كان بيت الحكمة نموذجًا لقدرة المسلمين على إنشاء المؤسسة العلمية الخصبة القادرة على صياغة المعرفة من روافدها بطريقة علمية لا تقف عند حدود النقل أو الجمع أو التدوين وإنما تضع على كل هذا بصماتها التي تكونت بحكم ما لم يتوافر لغيرها أو لسابقاتها ، وهكذا أمكن لهذه المؤسسة الإسلامية الإنشاء والإدارة والطابع (أي بيت الحكمة) أن تنظم الاستفادة من علوم الهنود والفرس واليونان والسريان للخروج بعلوم ومعارف حديثة، مما جعل بغداد وسط الدنيا لما فيها من تقدم ومعارف.

وإذا جاز لنا أن نذكر معلومة كاشفة فيكفي أن نشير أن ابن النديم قد سجل أن ٥٧ مترجمًا كانوا يعملون في بيت الحكمة في وقت واحد.

العامل الخامس : التدوين والتأليف وإعادة التأليف :

التدوين (بلغة العرب في ذلك الحين) يعني كتابة وتسجيل علم الطب الإكلينيكي في مؤلفات جامعة، وكان العلماء المسلمون يؤمنون أن التدوين عموما يمثل ثلث العلم !!

وإلى العرب يعود الفضل في وجود مراجع الطب الكبيرة الجامعة التي وصفت في عصرها بأنها تلبى حاجة أكثر من طبيب ولا يلم بكل ما فيها طبيب واحد.

وقد أفاد الغربيون من الطب العربي، في الاعتماد على هذه الكتب الجامعة، بل إنهم اعتمدوا كتب العرب بعد أن ترجموها وقد وجدوها حافلة بمادة علمية غزيرة جدا تتعلق بالطبّ الإكلينيكي.

وقد كان «فردوس الحكمة» الذي كتبه ابن ربن الطبري في سبعة مجلدات ، والذي يعد أول الموسوعات الطبية بالعربية معنيا بهذه الجزئية التي تناظر ما يسمى الآن كتب Manual المهارات اليدوية أو طرق التنفيذ .

وقد ازدهر هذا التوجه على يد تلميذ الطبري وهو الطبيب الأشهر محمد بن زكريا الرازي في كتابيه «الحاوي في الطب» و«الجامع الكبير» إذ دوّن الرازي معلوماته وخبراته عن حالات سريرية عالجها بنفسه، وقدم توثيقات مفيدة جدًا عن أمراض مختلفة . وقد رتب الأمراض جهازيا ووظيفيا : حسب تشريح أجزاء الجسد أو الأمراض المعروفة، بعدما صنفها وجمعها بحسب فهمه هو.

العامل السادس : التنظيم العلمي للخبرة الإكلينيكية :

وهو ما أعبر عنه في بعض الأحيان بتعبير : تقنين الفنون المرتبطة بالعلم .

• ويمكننا أن نقول بلا تجاوز أن العرب كانوا أول من انتبه إلى أهمية تنظيم خبراتهم الإكلينيكية على نحو ما نعرف اليوم من هذا التنظيم.

• وليس لنا أن ندعي لأطباء العرب معرفة بالعلم التجريبي كما نعرفه اليوم، ولكن الرازي في بعض أقواله يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث، وقد كان القدماء حين يتحدثون عن التجربة يعنون الخبرة.

وتنبئنا كثير من كتابات الرازي أيضا على إدراكه أهمية المجموعات الضابطة في دراسة الحالات والعلاجات.

- كانت دروس الطب ذات مستوى رفيع جدًا من التنظيم على المستويين النظري والتطبيقي.
- كان علي بن العباس (٩٩٤م) يشدّد في تدريسه لطلابه على ضرورة متابعة المرضى في المستشفى والمنزل، وتأثير تناولهم الدواء على مسار مرضهم.
- كان الرازي يقارن خلال زيارته مع طلابه، عوارض المرض بما تذكره الكتب.
- كان الطالب يتابع تدريبه في العيادة، و يشارك في زيارة المرضى ويناقش مع الأطباء مشكلاتهم، وكان الأطباء يطلبون منه فحص مريض ما والخروج بتشخيص لحالته، بعد ذلك يبدأ في فحص المرضى في العيادات الخارجية وذكر أعراض مرضهم للأطباء.
- وقد عرف الطب في مؤسساته سجلات للمرضى كان يتم تقديمها أثناء تدريس الطلاب.

العامل السابع: وصف الخطوات الجراحة في الأدلة العملية:

وهنا يبرز دور الجراح الفذ الزهراوي، وعلى يديه وأيدي أقرانه تحولت الجراحة من ممارسة حرفية تتلقى بالمشاهدة وحدها إلى علم ذي أصول وإلى مهنة ذات قواعد.

وقد أخذ الغربيون عن العرب خبرتهم في وصف الجراحات وخطواتها ومستلزماتها ومضاعفاتها وعواقبها، وكان كتاب الزهراوي مرجعا عند كل من مارس الجراحة في أوربا حينذاك.

وكان لكتاب الزهراوي فضل كبير في تحديد التفاصيل الدقيقة التي لابد منها لنجاح الجراحات .

العامل الثامن: إبداعهم لمؤلفات مبكرة في التشخيص التمييزي أو التفاضلي:

وقد كانوا هم الأوائل في هذا الميدان من آفاق التعليم الطبي إذ لم يعن به اليونانيون لكن العرب بدؤوه و أتقنوه .

والفضل في ذلك يرجع إلى الطبيب الموهوب أبي بكر الرازي والعالم الفذ ابن سينا من بعده . حين ابتدع علم التشخيص المقارن. واستقصاء الدلالات، والتمييز بين الأمراض المتشابهة. وهو الذي قدّر أهمية التدوين في ذلك كله.

العامل التاسع : الإفادة من الروافد الهندية والفارسية في العلاج:

على الرغم من أن التاريخ الطبي ينظر إلى الطب العربي والطب اليوناني والطب الحديث على أنها ثلاث مراحل في خط واحد إلا أن الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن الروافد الهندية والفارسية في العلاج لم تجد حظها في هذا الاختلاط بهذا التيار المستمر إلا من خلال الطب العربي .

- عرف المسلمون القنب القادم من الهند في القرن التاسع، بعد أن اطلعوا على الثقافة والأدب الطبي للفرس والإغريق .

- كما نقلوا عن ديسقوريدوس الذي اعتبروه أعظم علماء النبات القدامى، أنّه أوصى ببذور القنب لتهدئة آلام الفك وعصيره لأوجاع الأذن .

- واستخلصوا مواد علاجية من السنامكي والكافور والصندل والراوند والمسك والتمر الهندي والحنظل وخانق الذئب .

- أما الخشخاش فقد وصفه يوحنا بن ماسويه لتخفيف آلام نوبات الحصاة الصفراوية والحمى وعسر الهضم والعين والرأس وأوجاع الأسنان وذات الجنب وكمنوّم .

• على الرغم من فوائد الخشخاش الطبية، فقد حذر ابن ربن الطبري من أن خلاصة أوراق الخشخاش قاتلة ، وأن خلاصة الأفيون سامة.

• وفي القرنين التاسع والعاشر اقتصر استخدام الخشخاش على الأغراض العلاجية.

العامل العاشر : ممارسة التشريح :

تعمدت تأخير الحديث عن هذا السبب البارز من أسباب نبوغ الطب العربي لأن الإنجاز نفسه جاء متأخرا في تاريخ الطب العربي، ولو كان في إمكان المرء أن يتمنى للطبّ العربي ما لم يكن فيه فإني أتمنى لو أن الأطباء العرب بدؤوا بالتشريح قبل ثلاثة قرون من ممارستهم له.

• ومن الجدير بالذكر أن الأطباء العرب ظلوا يستسهلون النقل عن أبقراط وجالينوس كل ما يتعلق بالتشريح على الرغم من أنه كان في إمكانهم أن يعيدوا في هذه المعلومات التشريحية الخاطئة التي وقفت في سبيل تقدم العلم الطبي على نحو ما حدث بعد ذلك ، وعلى سبيل المثال فإن ابن سينا (١٠٣٧) نفسه كان ينقل وصف تشريح القلب عن الأطباء اليونان مع ما في هذا الوصف من خطأ فادح.

• والحق أن الطبّ العربي لم يصب طفرة في الشقين العلمي والبحثي إلا عندما تمكن عبد اللطيف البغدادي (١٢٢٢م) وابن النفيس (١٢٩٨م) وغيرهما من ممارسة التشريح والتفوق فيه.

• وسأحاول أن ألقي أضواء تفصيلية على هذه النقطة من خلال دراسات أساتذتنا في الجيل السابق وسأبدأ بملاحظات محمد كامل حسين التي أبداها في معرض مختلف وهو معرض حديثه عن نقد الأطباء العرب لبعض آراء الأطباء اليونان ، بينما الملاحظة نفسها يمكن أن تلفت النظر إلى ما هو أهم ، وهو قيمة

ممارسة التشريح في الارتقاء بممارسة العلم الطبي نفسه.

«وليست هذه أول مرة يخطئ فيها العرب جالينوس. ولكن اعتراضهم عليه كان في الغالب في أمور العلاج الطبي حين كانت خبرتهم تختلف عما قال به جالينوس. أما أن يكون جالينوس مخطئا في وصف حقائق التشريح فذلك كان جرأة لم يقدم عليها أحد من قبل».

هنا ينبغي لنا أن نتريث لنؤكد على ما ذكرناه من قبل من مدى الفائدة التي عادت على الطب العربي بعد أن مارس أطباؤه التشريح بأنفسهم، والحقيقة أن أكبر إنجاز حققه العرب نتيجة ممارستهم التشريح ووظائف الأعضاء هو إنجاز ابن النفيس (١٢٤٨) في شرح الدورة الدموية الصغرى ، ومع أن هذا الكشف نسب إلى «هارفي» ومع ما بذله الدكتور التطاوي في رسالته ثم ما بذله الدكتور بول غليونجي وغيره (في دراساتهم)في تحقيق وإثبات تأثر هارفي بآراء ابن النفيس التي نقلت إلى الغرب إلا أني أميل إلى الرأي الذي تبناه المؤرخ الفرنسي المعاصر سورينا في كتابه «تاريخ الطب» من أن هذا أمر طبيعي؛ لأن الكشوف تنتسب إلى مَنْ يتبناها ويدافع عنها ولا تنسب بالقدر الكافي إلى أول مَنْ يصل إليها.

ومن الجدير بالاطلاع والقراءة في هذا المقام أن نقرأ النص الذي وصف به العالم العظيم ابن النفيس (١٢٤٨) هذه الدورة:

«والذي نقول ،والله أعلم، إن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح، وهي إنما تكون من دم رقيق جدا وهواء يمكن من أن يحدث الروح من الجرم المختلط منها، وذلك حيث تولد الروح، وهو التجويف الأيسر من تجويفي القلب. ولا بد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء، فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتها جسم متشابه الأجزاء، وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويف القلب» .

«وإذا لطُف الدم في هذا التجويف فلابد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح. ولكن ليس بينهما منفذ، فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظن ذلك جماعة، ولا منفذ غير ظاهر يصلح لنفوذ الدم كما ظنه جالينوس. فإن مسامّ القلب هناك مستحصنة، وجرمه غليظ، فلابد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ من الوريد الشرياني إلى الرئة ليثبت في جرمها ويخالطه الهواء، ويتصفى ألطف ما فيه، وينفذ إلى الشريان الوريدي ليوصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب، وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد فيه الروح ، وما بقي منه أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها» .

على هذا النحو اكتشف ابن النفيس أن الحاجز البطيني لا يمكن اختراقه، وليس به أي نوع من المقاطع غير المرئية، مما يفند افتراض جالينوس. كما اكتشف ابن النفيس أن انتقال الدم من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر يتم عن طريق الرئتين، وهو ما عرف باسم الدورة الدموية الصغرى غير أن كتابات ابن النفيس عن هذا الاكتشاف لم تكتشف إلا في القرن العشرين.

كان ابن النفيس إذًا ينطق بما وجده من وجود الحاجز البطيني مكتملا في القلب ، بينما كان جالينوس قد شرّح على الأغلب جثث مَنْ كانوا مصابين بثقب كبير في الحاجز البطيني، ويقول ابن النفيس في هذا المعنى :

«وجعل ابن سينا (١٠٣٧) الدم في البطين الأيمن منه يتغذى القلب لا يصح البتة. فإن غذاء القلب من الدم المنبث فيه من العروق المنبثة في جرمه».

العامل الحادي عشر : الريادة والنبوغ في مجال الأخلاقيات الطبية:

يعد كتاب أدب الطبيب للرهاوي أقدم الأعمال العربية في مجال أخلاقيات الطب الذي اعتمد فيه على أعمال أبقراط وجالينوس.

وقد وصف الرهاوي في كتابه الأطباء بأنهم (رعاة الروح والجسد) ، وكتب فيه عشرين فصلًا في مختلف العناوين المرتبطة بالأخلاقيات الطبية .

كما اهتم الرازي أيضًا بالأخلاقيات الطبية، والتي كتب فيها كتابًا بعنوان أخلاق الطبيب. في هذا الكتاب، كتب ذلك الأستاذ الجليل أنه ليس فقط من الضروري للطبيب أن يكون حاذقًا في مجاله، بل يجب أن يكون نموذجًا يحتذى به. وقد انقسمت أفكاره حول الأخلاقيات الطبية إلى ثلاثة مفاهيم:

١- مسؤولية الطبيب عن مرضاه .

٢- ومسؤوليته أمام نفسه .

٣- إضافة إلى مسؤولية المريض أمام الطبيب .

العامل الثاني عشر : فكرة الترخيص بمزاولة المهنة :

● منذ عهد الخلافة العباسية، عرف المجتمع الإسلامي فكرة الرخصة الطبية الإلزامية ويروى أنه في عام ٩٣١ م، علم الخليفة المقتدر بوفاة أحد الأشخاص نتيجة خطأ طبي فأمر سنان بن ثابت بن قرة بأن يختبر الأطباء ويمنع من يرى عدم أهليته منهم كما أمر بإجراء امتحانات لكل الأطباء لمنحهم شهادة ممارسة المهنة.

● ومنذ ذاك الحين، أصبحت الاختبارات المهنية ضرورية للترخيص بمزاولة الطب ، ولم يعد يمارس الطب سوى المؤهلين لهذه الممارسة الذين أثبتوا النجاح في الاختبارات .

* * * *

الفصل الخامس

ميادين التفوق التي اقتحمها الطب الإسلامي

الميدان الأول: إنشاء المستشفيات وتطويرها :

• كانت ساحة المسجد النبوي في المدينة المنورة في عهد النبي محمد ﷺ، بمثابة أول مستشفى ميداني في الإسلام و ذلك خلال غزوة الخندق، حيث أمر النبي بنصب خيمة ليعالج فيها الجرحى .

• وسرعان ما ازدهرت فكرة المستشفيات كأماكن لعلاج المرضى على يد الخلفاء الأوائل ، ومع الوقت وسّع الخلفاء والحكام «البيمارستانات» التي أنشؤوها لتتيح ممارسات أرقى وأدق للأطباء والصيادلة.

• قبل أن ينتهي القرن الأول الهجري بنى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك أول بيمارستان في دمشق عام / ٧٠٧ م .

• ضم هذا البيمارستان طاقما من الأطباء مدفوعي الأجر من قبل بيت المال .

• كان مستشفى الوليد بن عبد الملك مجهزًا تجهيزًا جيدًا . وكان يعالج فيه المكفوفون، والمجذومون وغيرهم من المعاقين.

• وكان جزء منه بمثابة معزل صحي حيث كان مرضى الجذام يعزلون عن بقية المرضى . ولهذا السبب تعتقد بعض أدبياتنا خطأ أن البيمارستان كان مكانًا لعزل المجذومين، لأنهم كانوا يجمعون به ويعتقد آخرون خطأ أيضًا أنه للأمراض العقلية فحسب خالطين بين كلمتي البيمارستان والمورستان ، لكن هذين الخطأين الشائعين يدلان على مدى انتشار مظلة المستشفى في الحضارة الإسلامية .

● أما أول مستشفى إسلامي ضخم ومجهز فقد بني في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي دعا الطبيب جبريل بن بختيشوع لبناء المستشفى في بغداد ، وقد حقق هذا المستشفى شهرته سريعًا، فكان سببًا في انتشار المستشفيات في بغداد .

● على أن الأهم في المستشفيات الإسلامية أنها كانت تعتمد على ممارسة العلم ولا مكان للكهانة فيها.

● تشهد الأدبيات المتاحة ونصوص الرحالة أن العلاج في المستشفيات الإسلامية كان حسنا إلى حد كبير ، وكذلك كانت الإقامة . وقد قيل : إن بعض الأصحاء كانوا يدّعون المرض ليقيموا فيها.

● وقد عالجت المستشفيات جميع البشر بغضّ النظر عن عرق المريض أو دينه أو جنسيته أو جنسه .

● وتدل وثائق الوقف الإسلامي أنه لم يطرد منها أحد أبدًا ، إذ لم يكن هناك وقت محدد يُخرج المريض بعده من المستشفى ، بل كان من حقِّ المرضى أن يبقوا في المستشفى حتى يتعافوا تمامًا .

● وكان الهدف الأسمى للعاملين في المستشفيات الإسلامية معلنًا وواضحًا ومطبقًا وهو مساعدة المرضى.

● كان في المستشفيات الإسلامية قسمان متساويان أحدهما للرجال والآخر للنساء، وضمت المستشفيات الإسلامية أماكن خاصة لمن كانوا يعانون من اضطرابات عقلية . وفي هذه المصحّات العقلية كان هناك اهتمام بالبرنامج العلاجي للمريض النفسي، وكان يتضمن تدريبات رياضية وتوفير جو مريح والكثير من النوم والحمامات والضغط على الرأس بعصابة من قماش وتدليك الجسم بأنواع من الدهون.

● في كل مستشفى وجدت قاعة للدروس ومطبخ وصيدلية ومكتبة ومسجد وأحيانًا كنيسة للمرضى المسيحيين.

● وسرعان ما تطور الأمر فلم تعد المستشفيات أماكن للعلاج فقط ، ولكنها سرعان ما أصبحت في ظل العلم بمثابة مدارس طبية لتعليم وتدريب طلاب الطب.

● عرفت بعض البرامج الترفيهية والموسيقية للترويح عن المرضى.

● نما عدد المستشفيات الثابتة حتى أصبح في مدينة قرطبة أكثر من خمسين مستشفى .

عرف الطب الإسلامي المستشفيات المتخصصة

● مستشفيات (عسكرية) خاصة بالجيش .

● وأخرى بالمسجونين .

● وأخرى بالبُرص .

● وأخرى للأمراض النفسية .

● إضافة إلى مراكز الإسعافات الأولية .

● كذلك عرفت الحضارة العربية المستشفيات المتنقلة التي كانت تنتقل من منطقة إلى أخرى عند الحاجة في أوقات الحروب والحج والأوبئة .

الميدان الثاني : تطوير المستشفيات وتأهيلها للوظيفة التعليمية والبحثية :

● يرى كثير من المؤرخين أن العرب هم أصحاب السبق في المستشفيات العلاجية على وجه العموم، فإن لم يكن ، فهم أصحاب السبق الذي لا شك فيه في المستشفيات التعليمية .

وقد ظلت المستشفيات الإسلامية تحظى بالتقدم قرنا بعد قرن دون أن يتتابها

أي قدر من التدهور.

• وقد تمكن العرب من دعم وجود مؤسسات لممارسة الطب على نحو طويل الأمد (أي لا يقف عند حدود العلاج الوقتي والميداني) ، وإنما يستهدف الملاحظة والمتابعة وإعادة النظر والتعليم .

• ومع أن نصوص الطب العربي ومضامينه لم تتوسع كثيرا فيها بعد ابن سينا وكتابه القانون ، فإن فنّ العلاج في المستشفيات ظل يتقدم، وعني بها الأمراء والأطباء، وتحسنت حال المرضى في هذه المؤسسات، فبلغت مبلغًا تحدث به الرحالة عن إعجاب عميق وتقدير .

• ضمت المستشفيات الإسلامية أقساما منفصلة للأمراض المعدية والأمراض غير المعدية والجراحة وأمراض العيون، وكان لكل قسم فريق من الأطباء والممرضين من نفس الجنس .

• كانت العلوم الأساسية تدرس على يد معلمين متفوقين متخصصين فيها .

• وقد أشرنا إلى أن البيمارستانات الإسلامية كانت أولى المستشفيات التي تحتفظ بسجلات مكتوبة عن حالة المرضى وعلاجهم .

• كان الطلاب يتولون تدوين حالات المرضى، تحت إشراف الأطباء .

• أخذ الغربيون عن العرب نظام المستشفيات. وعني الباباوات وملوك الغرب بإقامة المستشفيات على نظام المستشفيات العربية .

الميدان الثالث: تطوير التخدير :

• كان للطب الإسلامي فضل كبير في تطوير التخدير ونموه ، واكتشاف مواد قادرة على المساعدة في التخدير وتغييب الوعي من أجل إجراء الجراحات ، ويرجع

جزء من هذا الشغف العلمي إلى رغبة المسلمين في التغلب على الاضطرار إلى استخدام الخمور والكحوليات نظرًا لما هو معروف من حرمتها .

- كان الأفيون معروفًا كمسكّن للألم منذ القدم؛ كما استخدمت غيره من المخدرات كالبنج الأسود والشوكران وعنب الذئب وبذور الخس لعلاج الألم. وقد عرف أن بعض هذه الأدوية وخاصة الأفيون، تتسبب في النعاس، وقد أثبت بعض العلماء المعاصرين أنها كانت تستخدم لإفقاد الشخص وعيه قبل الجراحة.

الميدان الرابع : ازدهار ممارسة الجراحة :

- قبل تطوّر التخدير والمطهرات، كانت الجراحة مقتصرة على الكسور والخلع وبتر الأطراف .
- وقد ساهم تقدم علم التخدير وإجراءات التعقيم مع نمو وانتشار المستشفيات في العالم الإسلامي على انتشار ممارسة الجراحة ، وبفضل الإنجازات التي تحققت في المستشفيات الإسلامية تطورت الجراحة علما وفنا وصناعة ، حيث أصبح الأطباء على معرفة بكل ما يتعلق بإجراء العمليات الجراحية
- ومع الزمن برع المسلمون في العديد من العمليات الجراحية ذات المهارة الخاصة، كجراحات العيون وشق المثانة والفتق.

الميدان الخامس: نشأة واستقلال علم الصيدلة :

نشأ علم الصيدلة كعلم واضح المعالم ومهنة مستقلة عن الطب في بداية القرن التاسع على يد العلماء المسلمين.

كانت مهنة الصيدلة في الحقبة الإسلامية على قدرٍ عال من التنظيم، فلم يكن للصيادلة الحق في ممارسة المهنة إلا بعد الترخيص لهم، وقيد أسمائهم بجداول خاصة بالصيادلة، كما كان لكل مدينة مفتش خاص للصيدليات وتحضير الأدوية .

وكانت صنعة الكيميائي المخوّل بتركيب الأدوية فنًا يدرّسه أكثر الأطباء، وكانت صنعة منتشرة بشكل كبير وتتطلب إذنًا خاصًا لمزاولتها .

والحق أن فن الصيدلة يدين للعرب بالشيء الكثير ، إن لم يكن من اختراعهم، وما ساعدهم على ذلك كون علمائهم كانوا كيميائيين وأطباء في الوقت ذاته، ونحن نعرف أن الصيدلة علم ذو علاقة وثيقة بعلمَي النبات والكيمياء .

ومما شجع المسلمين على البحث في فوائد النباتات والأطعمة ما احتوته الآيات القرآنية من إشارات واضحة إلى الفوائد الصحية والطبية لبعض الأطعمة كالعسل والتين والزيتون.

ويذكر للعرب أنهم أول من افتتحوا الصيدليات العامة وكان هذا في زمن المنصور، وألحقوا الصيدليات الخاصة بالمستشفيات، وكان للصيدلية رئيس يسمى «شيخ صيدلاني المستشفى» كما عينوا على الصيادلة رئيسًا سمي «رئيس العشابين»، ووضعوا كتبًا خاصة بتركيب الأدوية أطلقوا عليها اسم الأقرباذين.

وقد اهتم العرب أولًا بترجمة الكتب التي تناولت طب الأعشاب كأعمال ديسقوريدوس ، ثم دخلوا إلى ما يمكن أن نسميه مشروعات «المسح العقاقيري» فجابوا الأمصار والبلاد يصفون نباتاتها وخواصها، بعد أن يتعرفوا عليها .

كان تأثير الأدوية ومضاعفاتها على جسم الإنسان تفصيليًا ومثبتًا، وبدأت الكتابات العربية حول الأدوية قبل بدء الترجمات عن اللغات الأجنبية ، ثم كانت للعرب كتبهم في وصف النباتات والتي اشتهرت منها أعمال ابن البيطار ، وداود الأنطاكي ، وابن التلميذ صاحب كتاب الأقرباذين الكبير الذي ظل مرجعًا أساسيًا في علم صناعة الدواء في البيمارستانات .

وصف أبو العباس القلقشندي الصيدلية الملحقة بالبيمارستان ، فقال : إنها كان

فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، وأصناف الأدوية، والعطور الفائقة التي لا توجد إلا فيها، وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصينية من الزبادي والبراني، ما لا يقدر عليه سوى الملوك، ويقف الصيدلي بباب الصيدلية لابسًا ثيابه البيضاء يصرف الدواء ومن ورائه الرفوف الممتلئة بالأدوية والقوارير.

ووصف البيروني نشأة الصيدلة فقال : «إن الصيدلة أصبحت مستقلة عن الطب لغويًا كانفصال علم العروض عن الشعر، والمنطق عن الفلسفة، لأنها عامل مساعد للطب أكثر منها كونها تابعة له».

وقد ارتبط بنشأة علم الصيدلة في الإسلام تقنين وتقسيم وتوظيف العقاقير عمليا وفلسفيًا :

وأنا أعني كل ما تتضمنه هذه الكلمات الثلاث من ظلال علمية واصطلاحية لميادين مهمة ارتادها الأطباء العرب بفطرة العلم السليمة الذكية . فعلى الرغم من مكانة العقاقير في الطب ، فإننا قد لا نتصور حقيقة أن العرب كانوا أصحاب الفضل في تضمين الحديث عنها في كتب الطب.

وليس من قبيل المبالغة إذن القول بأن العرب هم الذين أعطوا للعقاقير مكانها في التأليف الطبي، وقد أخذ الغربيون عن مؤلفي الكتب العربية علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة. وظل كتاب ابن البيطار (١٢٤٨) مرجعهم الأول حتى أواسط القرن الثامن عشر.

الميدان السادس : الاهتمام المبكر جدا بما نعرفه الآن على أنه الهندسة الطبية :

• وهو الاهتمام الذي تبدى في تصميم الآلات والأدوات الكفيلة بتحقيق الوظيفة ولعل أبرز الأمثلة على هذا ما فعله الزهراوي (١٠١٣) في كتابه الفذ «التصريف» . فقد قدم للإنسانية آلات جراحية من اختراعه أو تطويره هو نفسه وقد رسمها بدقة ووضوح ، وحدد طريقة استعمالها. وربط هذا بالعمل الجراحي

من قبيل عمليات شق البطن، وتفتيت الحصوات، وعلاج المثانة بالشق... إلخ.

● ومن الجدير بالذكر أنه في الطب الموازي للطب العربي (الذي كان مركزه القسطنطينية) ، لم يكن معتادًا إجراء عمليات بمبضع الجراحة، في الوقت كانت الأدبيات الطبية العربية في القرن العاشر تزخر بذكر آلات الجراحة المخصصة لكل مرض من الأمراض.

الميدان السابع : تقدم البحث العلمي في الطب على أيديهم :

من المفهوم أن التقدم الذي أحرزه الأطباء المسلمون كان يعبر عن نجاحهم في البحث العلمي دون أن يطنطنوا بهذا النجاح الذي اعتبروه وسيلة إلى زيادة قدراتهم وعلمهم على حد سواء ، وشأن كل نجاح عميق فإن مضي الزمن وحده هو الكفيل بالكشف عن أسرار مثل هذا النجاح ، ويكفي أن ننقل مما لخصه الطبيب اليوناني سخوريتسانيتيس خمس مميزات لأبحاث الأطباء المسلمين العلمية ، هي :

● النقاش حول الموضوعات المشكوك فيها وعدم تقبل الأفكار غير الثابتة .

● التحليل الدقيق ، والأمانة العلمية .

● نسبة الاكتشافات لأصحابها وعدم استخدام تصريحات لا تدل على الثقة.

● حرية التعبير وعدم الارتباط بالنظريات القديمة.

● وأخيرًا الثقة بالنفس والرأي العلمي.

الميدان الثامن : الاهتمام بسياسات التعقيم والتطهير المبكرة :

يذكر التاريخ أن الأطباء المسلمين حرصوا على منع الإصابة بالعدوى عند إجراء الجراحات، واجتهدوا في هذا الميدان حسب معارفهم وخبراتهم المتاحة في عصورهم فكانوا يغسلون المريض قبل الجراحة وبعدها، كما كانوا ينظفون المكان بالكحول أو زيوت الورد أو بخليط منهما أو بمحلول ملحي أو بالخل، وهي مواد

لها خصائص مطهرة.

● استخدم الأطباء المسلمون أيضًا كلوريد الزئبق الثنائي لتطهير الجروح . واستخدموا الأعشاب المختلفة وراتنجات منها اللبان والمر والقرفة لمنع العدوى، لكنه لم يكن من غير المعروف على وجه الدقة مدى فعالية تلك المواد في الوقاية من التسمم.

الميدان التاسع : إسهام المرأة في الطب :

ليس المقام هنا مقام حديث عن فلسفة النجاح الذي حققه المسلمون في إعطاء المرأة دورًا محوريًا في مثل هذه النجاحات ، وعن أسباب عنايتهم بهذا الجانب، ودور الإسلام نفسه في دفعهم إلى هذا النجاح ، ودور تعاليم الإسلام في حماية هذا النجاح واستمراره .

● منذ عهد الرسول ﷺ مارست النساء الطب، وقد ورد ذكر الطبيبات والقابلات والمرضعات بكثرة في كتابات تلك الفترة.

● وفي أوج ازدهار فنون الطب كانت هناك طبيبتان من عائلة ابن زهر خدمتا في بلاط الخليفة الموحدي أبي يوسف يعقوب المنصور في القرن الثاني عشر الميلادي.

الميدان العاشر : الاهتمام بالطب الوقائي :

وصل هذا الاهتمام إلى حد وضع كتب تهتم بكيفية الحفاظ على الصحة، عن طريق الحفاظ على نظافة البيئة المحيطة وسبل التغذية السليمة، وممارسة الرياضة للحفاظ على الجسم. منها :

● كتاب تقويم الصحة لابن بطلان الذي كانت له شعبيته في أوروبا العصور

الوسطى، وهو دليل قوي على تأثير الثقافة العربية على بدايات الحضارة الأوروبية الحديثة .

- صحة المسنين : طب المشايخ لابن الجزار .
- طرق تقوية الذاكرة لابن الجزار .
- اضطرابات النوم : كتاب النسيان .

العامل الحادي عشر : التاريخ الآني والتالي للأطباء

عرف العرب فكرة أدلة أو قوائم الأطباء : وُجدت كتب البيوجرافيا والببليوجرافيا والأدلة التي تصنف الأطباء بحسب الفترة الزمنية التي عاشوا فيها أو بحسب المناطق التي استوطنوها، وحفظ التاريخ لنا كتبًا تناولت سيرة الأطباء الراحلين فأصبحت بمثابة المصادر المتخصصة لتاريخ الطب والأطباء والذين اجتمع لهم العلم بالطب مع إنجازات أخرى ولعل أهمها كتابي : (طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل) و(عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) .

* * * *

الفصل السادس
تفوق فلسفة الطب العربي

لكل علم أو فن يمارس فلسفة هي التي تحدد آفاقه وفرص نجاحه وتطوره .

وفي رأي المتواضع أن فلسفة بعض العلوم في بعض العصور كفيلة بأن توقف نمو العلم نفسه أو أن تنحرف بمسار هذا العلم إلى طريق مسدود غير قابل للانفتاح والتطور ، وليس أشق على العلم من أن يصاب بمثل هذه الفلسفة ، ومن الطريف أن بعض جامعاتنا الحديثة تقدم المثل البارز على هذا النمط من السلوك الذي يوقف تقدم العلم حين تتسلط على المدارس العلمية شخصيات تجمع بين العلم وحب السيطرة وتحصر مجال العلم فيما تراه ضروريا أو جوهريًا وتبعد العلم عن الآفاق التي ينبغي له أن ينطلق إليها .

ومن حسن الحظ أن مثل هذا المرض العلمي لم يزدهر (وربما لم يوجد إلا لماما) في تاريخ الطب الإسلامي .

ويبدو لي أن من المهم أن نتحدث عن بعض ملامح التفوق الفلسفي الذي مكن العرب من التفوق في الطب، والوصول إلى ما بلورناه في الفصول السابقة عن مكانتهم وإنجازاتهم ، وسأحاول ببساطة شديدة (محفوفة بقدر يسير من التأمل والتدبر) أن استخدم تعبيرات معاصرة (وغير فلسفية) للحديث عن السمات الفلسفية التي مكنت الأطباء العرب من الوصول إلى ما وصلوا إليه.

العامل الأول : استقامة منهج العلم :

في العصور الوسطى، كان المسلمون (وهذا طبيعي ومنطقي) يصنفون الطب أنه فرع من فروع الفلسفة الطبيعية، متأثرين بأفكار أرسطو وجالينوس ومن تبعهما.

لكنهم في القرن التاسع الميلادي بدؤوا (دون إعلان ولا نقول دون وعي) في تطوير نسق علم طبي يعتمد على التحليل العلمي .

كان الأطباء المسلمون ينظرون إلى الطب كعلم مستقل وشامل أي أن الطب يفسر الظواهر المرضية جميعًا ، ولا تتمدد هذه الظواهر من شخص إلى آخر أو من جهاز إلى آخر. ومع هذا فقد عرفوا التخصص، فكان منهم منذ مرحلة مبكرة أطباء تخصصوا في العيون ويعرفون بالكحالين، إضافة إلى الجراحين والفصادين والحجامين وأطباء أمراض النساء .

يري الدكتور بول غليونجي أن الطب الحديث لم يجدد «منهجًا أكثر استقامة» من منهج الرازي ومدرسته، بل «إننا في القرن العشرين نغفل بعض الأساسيات بحثًا عن وسائل سهلة وإن كانت أقل حكمة منها.

ولابد أن التزام الرازي بقواعده هو الذي أتاح لهذا الطبيب السريري الفذّ تحقيق كثير من إنجازاته ، ولا أدل على ذلك من وصفه وصفًا دقيقًا لما نسميه اليوم حمى الدراس، ووصفه الدقيق للطاعون، وتمييزه - أول مرة في التاريخ - بين الحصبة والجدري.

العامل الثاني : العناية بتحديد قيمة العلامات التشخيصية الدالة :

لم يكن الأطباء العرب يعاملون العلامات الطبية كلها على نفس القدر من الأهمية وإنما كانوا يرتبون أهميتها حسب قيمتها التشخيصية والعلاجية، وكانوا يرتبون قراراتهم العلاجية بناء على هذه الخبرة التي قادتهم إلى تقييم أهمية كل علامة من العلامات المتاحة لهم في تشخيص الحالات المرضية.

ومع أن هذا الأسلوب كان فيما يبدو مناقضًا للطبيعة الفلسفية السائدة في ذلك العصر إلا أنه سرعان ما وجد على يد الأطباء العرب الفرصة للوجود والازدهار.

ومنذ ذلك الحين المبكر تميزت للطب فلسفة تخلف مع الفلسفة العامة أو الأصلية .

ولعل هذا الأسلوب كان إرهاصا مبكرا لما نعرفه الآن في العلوم من أساليب التدريج Scoring وهو أسلوب لم تكن الفلسفة تعني به في ظل اقتصار الحديث على المقدمات والنتائج .

ومع أننا لم نؤصل بعد لما نسميه المنطق الطبي أو الفلسفة الطبية فلا شك في أن للطب منطقًا غير المنطق العام وفلسفة غير الفلسفة العامة .

العامل الثالث : العناية بترتيب العلاجات :

كان الأطباء العرب سباقين إلى إدراك أهمية ترتيب علاجاتهم المتعددة حسب خطورة مجموعة الأمراض التي تقابلهم مجتمعة مع بعضها .

ويشمل كتاب قانون ابن سينا فصلًا مهما في أي العلاجات تبتدئ إذا اجتمعت مجموعة من الأمراض مع بعضها ، فمثلا إذا اجتمع الورم والقرحة عالجنا الورم أولا ، وإذا اجتمعت السدة والحمى عالجنا السدة أولا. ولا نبالي بالحمى .

وقد علل ابن سينا هذا بقوله: «لأن الحمى يستحيل أن تزول وسببها باق. أما إذا اجتمع المرض والعرض فإنا نبدأ بعلاج المرض ، إلا أن يغلبه العرض فحينئذ نقصد قصد العرض، ولا نلتفت إلى المرض. كما نسقي المخدرات في القولنج الشديد الوجع إذا صَعُب وإن كان المرض يضر نفس القولنج... وهكذا».

العامل الرابع : الإيمان المبكر بأهمية وضرورة التفكير الموسوعي المنظم :

وبهذا الفهم خرج الطب من محيط الفلسفة الضيق إلى آفاق الحياة الواسعة ، وربما كان هذا هو ما دفعني إلى اختيار العنوان الذي اخترته لهذا الكتاب والذي قصدت به أن الطب لم يعد جزءا من الفلسفة ، وإنما أصبح كيانا كبيرا له فلسفة ربما تتفوق على الفلسفة بمفهومها السابق .

وقد تمثل هذا على سبيل المثال وبصورة واضحة في وضع الكتب المرجعية الكبيرة ، وما تميزت بها هذه الكتب من الأسلوب الموسوعي في ترتيب الموضوعات والإحالات بعيدا عن الأسلوب المنطقي المنحصر في أسر المقدمات والنتائج .

ويكفي في هذا الصدد ما لا يزال يوصف به كتاب «القانون» من أنه كان ممتازا في تنسيقه وتبويبه ووضوح قضاياه. ويكفي ما تعارف أطباء القرون الوسطى من وصفه بأنهم وجدوا فيه تفسيرا لكل شيء، وشرحا لكل معضلة تعرض لهم.

العامل الخامس : إتقان صياغة التعريفات الواضحة:

وقد أخرت الحديث عن هذا العامل ؛ لأنه عامل عام يعرف عند كل متفوق في العلم على وجه العموم لكن الأطباء العرب تفوقوا فيه تفوقًا ساحقًا بل بلغ تفوقهم فيه حد الطفرة ، و يبدو لي أن عناية العرب بالتعريف الواضح المنضبط قد أفادت الطب الإنساني إفادة بالغة، وقد ازدهرت عناية العرب بالتعريف مع ازدهار العلوم الفقهية في مدارسها المختلفة.

ونحن نعرف أن التفريق ينمي عقلية قادرة على الاختصار ثم على التجريد ؛ ثم ربما يقود إلى القدرة على الصياغة الشعرية أو الفلسفية .

ونحن نعرف أن ابن سينا (١٠٣٧) قد لخص كتاباته الطبية في أرجوزة شعرية تقع في ١٣٦٢ بيتًا، وقد ترجمها مترجم القانون (جيرار دي كريمونا) وسميت باللاتينية Cantica Avicennae، ويلتفت الدكتور بول غليونجي إلى أن ابن سينا عرّف الطب في هذه الأرجوزة تعريفًا لم تصل الهيئات الدولية الحالية إلى تعريف أشمل منه، حيث ذكر في بيت واحد السبب والعرض والعلاج والوقاية .

الطب حفظ صحة برء مرض   من سبب في بدن عنه عرض

العامل السادس: التفوق المنهج في شرح العلاقة بين التركيب : (على نحو ما أظهره التشريح) وبين الفسيولوجي (وظائف الأعضاء) .

نتقل للقارئ فقرة تدل دلالة واضحة على هذا المعنى الدقيق وهي فقرة من فقرات ابن النفيس (١٢٩٨) في الحديث عن وصف تركيب القلب على نحو ما صوره الأولون ووظيفته على نحو ما يفهمها هو ، وهو ما أدى به إلى التذليل (المنطقي الاستنتاجي) على وجود الدورة الدموية الصغرى :

«فعل القلب كما بيناه أولًا أن يولد الروح الحيواني وتوزعه على الأعضاء وتوليده ذلك بأن يسخن الدم ويلطف حتى إذا خالطه بها في الرئة من الهواء أصلح ذلك المجموع لأن يصير روحا حيوانيا ، فلذلك لابد من أن يكون اغتذاء الروح الذي فيه القلب بأن يلطف الدم في القلب ويرق قوامه جدا ثم بعد ذلك ينفذ إلى الرئة ويخالط ما فيها من الهواء، وينطلق فيه حتى يتعدل ويصلح لتغذية الروح. ثم بعد ذلك أن ينفذ إلى الروح الذي في القلب ويختلط به ويغذيه. وهذا الموضع الذي هو في القلب وفيه الروح لابد وأن يكون متسعا ليتسع بمقدار كفاية البدن كله من الروح، فلذلك لابد من اشتمال القلب على تجويف يحوي الدم، وتجويف آخر يحوي الروح ، فإن القلب له بطنان أحدهما مملوء بالدم، وهو الأيمن، والآخر مملوء بالروح، وهو الأيسر. ولا منفذ بين هذين المغذيين البتة وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها، والتشريح يكذب ما قالوه، والحاجز بينهما أشد كثافة من غيره لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح فتضيع. فلذلك قول من قال : إن هذا الموضع كثير التخلخل، وذلك باطل فإن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر، إنما هو من الرئة بعد تسخينه وتصاعده من البطين الأيمن كما قررناه ...».

العامل السابع: القدرة على الوصف الدقيق لتآزر التركيب والوظيفة بلغة الحياة التي يسهل فهمها :

وليس أدل على هذا مما نكرر الإشارة إليه من عبقرية الوصف التشريحي الذي تضمنته كتابات ابن النفيس ،وعلى سبيل المثال فقد قال ابن النفيس (١٢٩٨) في كلامه عن تشريح الرئة:

«وأما الرئة فإنها مؤلفة من أجزاء، أحدها شعب القصبة، والثاني شعب الشريان الوريدي، والثالث شعب الوريد الشرياني. ومجمعها لحم رخو متخلخل، أما حاجة الرئة إلى الوريد الشرياني فلأنه ينقل إليها الدم الذي قد لطف وسكن في القلب ليختلط ما يرشح من ذلك الدم في مسام فروع هذا العرق في خلل الرئة بالهواء الذي في خللها، ويمتزج به فيكون من الجملة ما يصلح ليكون روحا حصل ذلك المجموع في التجويف الأيسر من تجويفي القلب، وذلك بإيصال الشريان الوريدي لذلك المجموع إلى هذا التجويف، وأما حاجة الرئة إلى الشريان الوريدي فإنه ينفذ فيه هذا الهواء المخالط لذلك الدم ليوصله إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب فيصير من هذا المجموع الروح».

العامل الثامن: القدرة على تصحيح النصوص الكلاسيكية بما أثبتته المشاهدات الحديثة :

وعلى سبيل المثال فإن جالينوس كان يقول بأن الفك السفلي يتكون من جزأين، ويردف هذا بقوله : « وهو ما يمكن إثباته عند طهيه، فإنه ينقسم من عند منتصفه».

فلما جاء موفق الدين عبد اللطيف البغدادي في زيارة لمصر، وصادف بقايا الهياكل العظمية لأشخاص لقوا حتفهم من الجوع بالقرب من القاهرة و فحص

البغدادي الهياكل، توصل مباشرة إلى القول بأن الفك السفلي يتكون من قطعة واحدة لا قطعتين كما اعتقد جالينوس ، وسجل هذا في كتابه (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) حيث قال في حديثه عن الجثث التي رآها :

«ما رأيته أقنعني أن عظام الفك السفلي قطعة واحدة، بلا فاصل أو رابط. وقد أعدت الفحص مرات عديدة على أكثر من ألفي رأس... وقد ساعدني كثيرون بتكرار نفس الفحوصات سواء في غيابي أو تحت عيني..» يقصد بإشرافي المباشر .

العامل التاسع: الاعتراف بالتجريب و توظيفهم لريادتهم في علم الفسيولوجيا التجريبية :

وعلى سبيل المثال فقد وصف ابن أبي الأشعث وظائف المعدة على أسد حي، في كتابه «الغادي والمغتدي» حيث وصف تجربة ذكية وحية قام بها فقال :

« عندما يدخل الطعام المعدة، خاصة عندما تكون ممتلئة، تتسع المعدة وتتمدد طبقاتها...» .

«الناظر للمعدة يراها صغيرة إلى حد ما، لذا فقد شرعت في صب إبريق بعد إبريق في فمها... الطبقة الداخلية للمعدة المنتفخة أصبحت ناعمة كطبقة الغشاء البريتوني الخارجية. ثم قطعت المعدة وسمحت للماء بالخروج، فتقلصت المعدة، حتى رأيت فمها».

وقد دوّن ابن أبي الأشعث (الذي نعده رائد علم الفسيولوجيا التجريبية) ملاحظاته تلك عام ٩٥٩م، وبعد نحو ٩٠٠ عام، أعاد وليم بومونت وصف هذه الوظائف.

العامل العاشر: توثيق العلاقة بعلم النفس والتربية والصحة النفسية:

ألقى الإسلام بروحه المعتنية بالتربية والأخلاق على ممارسات الطب ، وذلك بحكم تشبع المسلمين بالقيم التي دعا إليها دينهم ، وهكذا لم يكن بدعا أن نرى

العناية الوثيقة بالنواحي الخلقية في ممارسة الطب وبالنواحي الخلقية في دراسة الطب وبالنواحي الخلقية فيما يستهدفه العلاج ، لكن الأهم من ذلك في نظر الطب أن الطب الإسلامي عني عناية خاصة بعلوم النفس وعلاقتها بالطب قبل أن يستقل الطب النفسي على نحو ما نعرفه الآن .

وقد كان الطبري على سبيل المثال من الرواد في علم تنشئة الطفل، وترك لنا ما يدل على أنه درس الروابط القوية بين علم النفس والطب، والحاجة للعلاج النفسي والإرشاد عند معالجة المرضى.

* * * *

الفصل السابع
الاتصال بين طب الحضارة العربية والحضارة الأوربية ومظاهر التأثير

يبدو هذا الموضوع بمثابة أهم الجوانب التي يعني بها مؤرخو الطب المعنيون بتعاقب المعرفة وتطور مسارها ، ومع أن جوانب الحديث فيه قد تكون محسومة سلفًا إلا أن التأمل المستقل في العلم وتاريخه يجدد لنا معلوماتنا ومعرفتنا بهذا الجانب من جوانب التبادل الحضاري المبكر أو بالأحرى التأثير الحضاري المبكر .

ربما كان أفضل ما نشير به إلى حقيقة هذا التأثير هو ما قرره سارتون، الذي يعده البعض أكبر مؤرخي العلوم المعاصرين في أوربا وأمريكا، حيث يقول:

«إنه لعمل عظيم أن ينقل العرب إلينا كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها، على أنهم لم يكتفوا بهذا، بل غذوها وسموا بها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة».

وقد قلنا من قبل: إن العرب قد تداركوا على أبقراط وجالينوس ما لم يسبق إليه أحد، وإلى أن طبيبًا كالرازي نقّح أبقراط وهذبه أكثر مما صنع جالينوس.

وإذا كان أطباء العرب قد سلموا بمبادئ لا نسلم بها اليوم، ولم يتخلصوا تماما من نظرية الأخلاط اليونانية فإنهم أفسحوا للتجربة مجالا انتهى بالقضاء على هذه النظرية ، ولا يزال قدر من مؤلفات الطب العربية يعد إلى اليوم بين أمهات الكتب الطبية، وهو مخطوط، وما أحوجه أن يرى النور.

ومن الإنصاف أن نقول :إن مؤرخي العلوم بحكم تكوينهم حصروا أنفسهم في دراسة التفوق من خلال الكتب ، وفي دراسة التأثر من خلال الكتب ، وفي دراسة الاتصال من خلال الكتب ، ولهذا فلم يكن من المستغرب أن يصلوا إلى ما

وصلوا إليه في أحكامهم من اقتصار على « النصوصية » وابتعاد عن تقدير «المهنية» و«الممارسات» ، وربما كان هذا ما دفعني إلى اختيار منهجي في هذه الفصول أو (المحاضرات) وإلى اختيار العنوان الموحي (آفاق) لهذا الكتاب .

وكان محمد كامل حسين قد طرح رؤية جديدة لتقييم هذا الأثر، ولكنها لم تحظ حتى الآن بالقبول الكامل، وهو يذهب في هذا الصدد إلى قوله:

«يخطئ المؤرخون الذين يقيسون التفوق الطبي بمقياس واحد هو عندهم جودة المؤلفات الطبية. والحق أن المؤرخين جميعا أشادوا بالمؤلفات العربية الكبرى لحسن تبويبها، ووضوح قضاياها، واستقرار منطقها. ولكن هذا الرأي قد يدعو إلى إغفال تفوق العرب في الطب الإكلينيكي. وقد يدعو إلى إغفال شأن البيمارستانات التي كان يعالج فيها المرضى، ويتدرب فيها الأطباء. فكانت بذلك مستشفيات تعليمية قريبة جدا من مثيلاتها في عصرنا الحديث، ولا يجوز لنا أن نغفل هذين الأمرين حين نحاول تقدير الطب العربي».

ومن المهم أن ندرك حقيقة مزدوجة فإنه كما كانت الترجمات الأولى للنصوص الطبية، عاملًا أساسيًا في تكوّن الطب الإسلامي. فقد كان للترجمات اللاتينية للأعمال العربية أثرها البالغ في تطور الطب في نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة .

يرى الدكتور محمد كامل حسين (١٩٧٧) أن هذا الاتصال قد حصل من خلال ثلاثة مواضع، ولكنه لم يكن كفيلا بنقل العلوم الطبية الإسلامية من الوهلة الأولي ، وهو يعلل هذا الرأي على نحو جيد نوافقه عليه ويقول:

«اتصلت الأمم اللاتينية بالحضارة العربية في ثلاثة مواضع :

- في الشرق أثناء الحروب الصليبية .
- وفي صقلية .

- وفي الأندلس .

وتم هذا الاتصال في عصور مختلفة، وكان طبيعيا أن تفيد الأمم اللاتينية من الحضارة المزدهرة حينذاك. ولكنهم لم يفيدوا كثيرا من التقائهم بالعرب في أثناء الحروب الصليبية. وفي صقلية كان أثر العلوم العربية أكبر، ولكنه كان مضطربا مشوشا.

أما في الأندلس فكان الاتصال وثيقا نافعا على ما فيه من شوائب الحروب الصليبية .

والثابت أن الصليبيين لم يعملوا ما عمله أهل صقلية وسالرنو الذين نقلوا كتب الطب العربية إلى لغتهم».

وهو يعلل هذا بقوله:

«وقد يكون ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالحروب. وإن كان الواقع أنه كانت هناك فترات طويلة من السلم كان الفرنج يستطيعون فيها أن يلموا بالطبِّ العربي. وعندي أن قصورهم عن هذا العمل يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى لا يتم إلا أن يكون بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها، ولم يكن عند الصليبيين قدرٍ كاف من الحضارة تسمح لهم باستيعاب العلوم العربية، ومع حاجاتهم إلى الطب فإنهم لم يريدوا أن يتعلموا منه ما لم يكونوا يعرفون. ولو أرادوا ذلك ما استطاعوه».

ويرى الدكتور بول غليونجي (وهو لاحق لمحمد كامل حسين) أن الاتصال بين العلوم الطبية الإسلامية وأوربا تم من خلال خمسة مواقع .

- وهو يفصل بين سالرنو وصقلية التي يدمجهما محمد كامل حسين معًا،
- كما يضيف جنوب إيطاليا إلى سالرنو.
- كما أنه يضيف موضع اتصال خامس هو زيارات العلماء.

ويمكن لنا ، على سبيل الإجمال، أن نلخص رؤية علمائنا المعاصرين للطب العربي بالقول بأنهم كانون يرونه قمة الطبّ الوسيط وأنه اعتمد على الطب القديم، السابق عليه وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به العصر. وانتقل بحكم هذا الرقي إلى البلاد الغربية بجملته علما وعملا.

ولعل مما لابد منه في هذا الفصل أن نقدم قائمة بعشرة من الكتب الطبية العربية أو المؤلفات الطبية للمسلمين التي تدرس في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر ، والتي استفادت أوروبا منها على يد المترجمين .

- القانون لابن سينا (١٠٣٧)
- الحاوي لأبي بكر الرازي (٩٣٢)
- الجامع الكبير للرازي (٩٣٢)
- المنصوري لأبي بكر الرازي (٩٣٢)
- الملكي لعلي بن عباس (٩٩٤)
- «زاد المسافر وقوت الحاضر» لابن الجزار (١٠٠٥)
- «التصريف لمن عجز عن التأليف» للزهراوي(١٠١٣)
- المادة الطبية لابن ماسويه (١٠١٥)
- «التيسير في المداواة والتدبير» لابن زهر (١١٦٢)
- «موجز القانون» لابن النفيس (١٢٩٨)

❊ ❊ ❊ ❊

الباب الثاني

أعلام في تاريخ الطب الإسلامي

الفصل الثامن

يحيى (يوحنا) بن ماسويه (٨٥٧م)

● هو يوحنا بن ماسويه المكنى بأبي زكريا.

● سرياني الأصل عربي المنشأ .

● كان مسيحيا ثم أسلم وتسمى باسم يحيى .

● يعرف في الغرب باسم Mesue.

● يعد طليعة الأطباء المؤلفين الأوائل الذين اعتمدوا في تآليفهم على ما ترجموه. ومعظم كتبه رسائل في موضوعات محددة، لكنه رائد .

● لا ينكر أحد فضله في وضع المصطلحات الطبية العربية.

● هو رائد المترجمين العرب في عصر النهضة، وهو طبيب الخلفاء العباسيين وعميد الترجمة المسؤول عنها على مدى عصور خمسة خلفاء من ثلاثة أجيال هم : الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل.

● نال ثقة هؤلاءالخلفاء العباسيين ، وبلغ ببعضهم الأمر ألا يأكلوا إلا في حضوره .

● كان أبوه صيدلانيا في جنديسابور (خوزستان) ثم عمل طبيبًا للعيون في بغداد، وذاع صيته، واختاره هارون الرشيد من أطبائه، وقد نشأ ابنه يوحنا في كنفه في بغداد .

● كان يوحنا أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة في بلاد الروم التي فتحها المسلمون كأنقرة وعمورية.

● ولاه الرشيد مسؤولية أمانة الترجمة، ببيت الحكمة، وعين له مساعدين، وجمع بين وظيفتي الترجمة والطب.

● فلما كان عهد المأمون صار رئيسا لبيت الحكمة كله .

● عاش حياته كلها في بغداد التي ولد بها وتوفي فيها، وكان مجلسه في بغداد أعمر المجالس بالحضور ،وقد حاز شهرة واسعة وثروة طائلة .

● عدّ في الأوساط الغربية بمثابة رائد في علم الحميات .

● تفوق في علاج أمراض العيون والتأليف عنها وهو أول مَنْ وصف مرض «السَّبل القرني» وأدرك طبيعته الالتهابية ووصف صورته الإكلينيكية .

● عرف بكتاب شهير له في أمراض العيون «معرفة محنة الكحالين» ألفه على هيئة أسئلة وأجوبة، وهو أشبه بالكتب التي نسميها الآن نماذج الامتحانات التي تساعد الطلاب على التقدم للامتحانات .

● كتابه «دغل العين» هو أقدم كتاب تعليمي عرفه العالم في طب العيون .

● ترجم كتاباه «دغل العين» و «الحميات» إلى العبرية.

● هو أول طبيب في العالم وصف مرض الجذام وسماه بهذا الاسم .

● من المؤلفات المنسوبة إليه أيضًا: «نوادر الطب» وقد كتبه ابن ماسويه إلى الطبيب حنين بن إسحاق، لما انقطع عن مجلسه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية.

● وله في الطبّ العام:

○ «مختصر في معرفة أجناس الطب وذكر معدنه».

○ «المنجي في التداوي من صنوف الأمراض والشكاوى».

○ «تركيب خلق الإنسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعروقه».

○ «ذكر خواص مختارة على ترتيب العلل».

● **وله في العلوم الصيدلية وعلم الأدوية :**

○ «في تركيب وسقي الأدوية المسهلة بحسب الأزمنة وبحسب الأمزجة، وكيف ينبغي أن تسقى، ولمن؟ ومتى» .

○ «تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها وخاصة كل دواء منها ومنفعته».

○ «جواهر الطب المفردة بصفاتها ومعادنها».

○ «ماء الشعير».

○ «خواص الأغذية والبقول الفواكه واللحوم والألبان وأعضاء الحيوان والأباريز والأفاويه».

○ «السموم وعلاجها».

● **و في أمراض الجهاز الهضمي:**

○ «كيف يمنع الإسهال إذا أفرط».

● **و في أمراض النساء والتوليد :**

○ «علاج النساء اللواتي لا يحملن حتى يحبلن».

● **و في الطب الوقائي:**

○ «تدبير الأصحاء».

● **و في الطب النفسي :**

○ «الماليخوليا وأسبابها وعلاماتها وعلاجها».

● **وله كتب أخرى:**

○ «الرهان» .

- «الكمال والتمام» .
- في الصداع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته .
- في السدد والعلل المولدة لكل نوع وجميع علاجاته.
- الأشربة .
- الفصد والحجامة .
- الجذام .
- دفع مضار الأغذية .
- الجنين .
- دخول الحمامات ومنافعها ومضارها.

* * * *

الفصل التاسع

ابن ربن الطبري (٨٦١م)

● هو رائد المؤلفين العرب في علوم الطب ، و به يبتدأ التأليف الطبي العربي، ولا ينكر أحد سبقه في مجال التأليف الطبي العربي وعليه اعتمد الرواد الأوائل، وتأثروا بمنهجه وأسلوبه في التأليف .

● اسمه : علي بن سهل بن ربن الطبري ،ويرد في كثير من المراجع باسم علي بن ربن الطبري .

● ولد بمدينة مرو من أعمال طبرستان .

● كان من سلالة مشهورة من العلماء الأطباء . وكان والده من المبرزين في وطنه علما وأخلاقًا .

● وقد تولى هذا الوالد تثقيفه وتعليمه .

● تعلم ابن ربن الطبري العربية والعبرية والسريانية وقليلًا من اليونانية، وسافر إلى العراق من أجل العلم، وفيها راجع الكتب الهندية، ورأى أن يؤلف من معلوماتها كتابًا طبيًا مرجعيا في الطب، وهكذا بدأ تصنيف كتابه الشهير «فردوس الحكمة» ، وهو الكتاب الذي حذا حذوه فيه كبار الأطباء العرب اللاحقين به.

● عاد إلى بلاده، وعمل في حكومة أمير طبرستان .

● بعد فتنة سياسية انتقل الطبري مضطرًا إلى الري ومارس فيها التطبيب، وفيها قرأ عليه أبو بكر الرازي الطب، ولهذا فإنه بعد أستاذ الرازي المباشر .

● اختاره الخليفة المعتصم ليتولى أمر الكتابة في ديوانه، وبقي في عاصمة الخلافة

العباسية حتى عصر المتوكل بن المعتصم الذي دعاه إلى الإسلام ،فاستجاب وأشهر إسلامه، وقيل : إنه أسلم منذ عهد المعتصم.

● هو صاحب الفضل في تعريف الأطباء الرواد (كالرازي وعلي بن عباس المجوسي وابن سينا) بما احتوته المكتبة الطبية الهندية في عصره والعصور السابقة عليه .

● هو أيضًا صاحب كتاب «الدين والدولة» الذي يعد ثاني كتاب عربي في الفكر السياسي بعد كتاب ابن المقفع «رسالة الصحابة» وقد تصدى فيه لبحث تاريخ المعتقدات السياسية والفلسفية من العصور القديمة وحتى عصره، وهو كتاب مطبوع .

● كان الطبري أول من بحث في الطب النفسي والأمراض النفسية ، كما اهتم بما نعرفه الآن على أنه علم النفس وعلوم التربية .

● كانت له إنجازات علمية طبية متميزة في الأمراض الجلدية فقد وصف مبكرا تشكل الفطريات على سطح الجلد، كما أجاد وصف آفات الجلد المختلفة . وهو الذي اكتشف الحشرة المسببة لداء الجرب ووصفها في كتابه (المعالجة الأبقراطية) .

● اقتحم الطبري مجال الكتابة عن تكوين الجنين .

● امتد الطبري بالكتابة الطبية إلى العطور والزينة.

● كتاب «فردوس الحكمة» هو أقدم كتاب جامع لفنون الطب والصيدلة وصل إلينا من كتب العلماء العرب. ومن الطريف أن «فردوس الحكمة» يعد كتابًا في الطب والفلك والجغرافيا الطبيعية معًا ذلك أنه ضمن النوع (القسم) السادس من كتابه معلومات قيمة عن الأشياء المتجلية من الأرض والأصداف والأشياء المعدنية والدخان والرماد والزاج.

• وقد أورد الطبري في مقالة من كتابه ما عرّفه على أنه كليات الطب الهندي ومعالجته من كتب شركا Charaka وسسرتا Susruta وندانا Nidana واشتانقريردي Ashtangahradaya، وقد طبع الكتاب العالم الهندي الدكتور محمد زبير الصديقي سنة ١٩٢٨ في حجم متوسط بلغ أكثر من ٦٠٠ صفحة.

رتب ابن ربن الطبري كتابه على سبعة أنواع (أي أقسام) في ثلاثين مقالة جمعها في ٣٦٠ بابًا :

○ **الباب الأول** : مقالة واحدة في بعض المعاني الفلسفية والمقالات والطبائع والكون والفساد.

○ **الباب الثاني** : خمس مقالات تعرض لعلم الجنين والولادة ووظائف الأعضاء في النفس والبدن ومزاجات الأبدان وتربية الأطفال وتدبير الفصول والأسفار والعساكر.

○ **الباب الثالث** : مقالة واحدة في الاغتذاء وأنواع الأغذية.

○ **الباب الرابع** : اثنتا عشرة مقالة [وهو أكبر قسم في الكتاب] يتناول الأمراض بصفة عامة ثم الأمراض الخاصة فيدرس أسبابها وعلاجها مبتدئًا من الرأس حتى القدم، وينتهي بمقالة في الفصد والحجامة وفحص البول.

○ **الباب الخامس** : مقالة واحدة في المذاقات والروائح والألوان.

○ **الباب السادس** : ست مقالات خاصة بالمادة الطبية والسموم.

% في **المقالة الأولى** يدرس الحبوب وقوي البقول والثمار واللحمان والألبان والأجبان والأسماك والأدهان والأشربة والأقشرجات (العصارات) والمربيات والخل والحلاوات والأملاح والأبازير والرياحين وأفاوية الطب والثيبا والغراء.

% وأما المقالة الثانية فقد خصصها للمادة الطبية وهي خمسة أبواب:

○ الأول : في الأدوية المقررة والعقاقير.

○ الثاني : في الصموغ والأشياء المتجلبة من الأرض.

○ الثالث : في الأصداف والأشياء المعدنية والدخان والرماد والزاج.

○ الرابع : في قوى الأرض والطين المختوم.

○ الخامس : في إصلاح الأدوية وحفظها.

% أما المقالة الثالثة فتحتوي على باب واحد في قوي الأدوية المسهلة وإصلاحها،

% وأما المقالة الرابعة فتضم اثنين وأربعين بابًا مخصصة لمنافع أعضاء الحيوانات.

% وتضم المقالة الخامسة بابين في السموم وعلاماتها وعلاجها.

% وتشمل المقالة السادسة على ثمانية أبواب في الأدوية المركبة والترياقات والأقراص والجوارشتات والربوب والأشربة والأدهان والمرهمات.

○ الباب السابع : أربع مقالات في البلدان والمياه والرياح والأفلاك والكواكب.

○ وينتهي الكتاب بذكر ملخص من كتب الهند الطبية.

● ذكر ابن النديم في «الفهرست» عددًا من تآليفه الأخرى هي:

○ كناش الحضرة.

○ منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير.

○ كتاب في الأمثال والأدب على مذهب الروم والعرب.

● وأضاف إليها ابن أبي أصبيعة في كتابه «طبقات الأطباء».

○ عرفان الحياة .

○ حفظ الصحة .

○ كتاب في الرق .

○ كتاب في ترتيب الأغذية .

○ كتاب في الحجامة.

* * * *

الفصل العاشر

حنين بن إسحاق (٨٧٨م)

هو ذلك المترجم الفذ الذي اشتهر بأن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقل من الكتب إلى اللغة العربية وهو أحد أبرز رواد النهضة العلمية الإسلامية في مطلع عهدها، إليه بمفرده يرجع جزء كبير من تأسيس العلم في المجتمع الإسلامي بفضل جهده المكثف في ترجمة الأعمال العلمية، وإعادة ترجمة ما سبق لأسلافه أن ترجموه ، كما تولى مراجعة ترجمات تلاميذه ، وهكذا أعطى أسلوبه مسحة عامة على ما توافر من الأدبيات الطبية المترجمة الشائعة في زمانه .

- هو أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي .
- ينتمي إلى قبيلة عربية استوطنت الحيرة .
- ولد بالحيرة ، وكان والده من المشتغلين بالصيدلة .
- درس على والده كما درس في مدرسة جنديسابور الطبية الشهيرة .
- ودرس الطب على يد حنا بن ماسويه، ولقي تشجيع جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون الخاص.
- عمل (مثل ابن ماسويه ومثل الطبري) مع الخليفة المعتصم.
- تعلم حنين بن إسحاق اللغة العربية على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي في بلاد فارس، وكان هو الذي جلب معه إلى بغداد كتاب «العين» للخليل بن أحمد، أول معاجم العربية.

● سافر من أجل العلم إلى بلاد الشام والروم وفارس .

● كان متمكنا من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية إضافة إلى العربية، وبفضل هذا التمكن مع عقلية علمية واعية وممارسة طبية متصلة نجح حنين بن إسحاق في أن يؤدي للطب العربي ولغيره من العلوم أجل الخدمات العلمية .

● ترجم ما تمكن من الحصول عليه من المخطوطات في عهد المأمون ،كما رحل إلى كثير من البلاد للحصول على نوادر المخطوطات .

● يذكر أن ما تولى ترجمته من اليونانية إلى السريانية خمسة وستين كتابا. وأن ما تولى ترجمته من اليونانية إلى العربية بلغ خمسة وثلاثين كتابا. وأنه راجع ترجمة ستة كتب إلى السريانية، وسبعين إلى العربية. وأعاد ترجمة معظم الكتب التي ترجمها أسلافه من الأطباء عن اليونانية .

● لم يقف حنين بن إسحاق في ترجمته عند الكتب الطبية فحسب، ولكنه ترجم أيضا الكتب الفلسفية الكبيرة لأرسطو وأفلاطون.

● حنين بن إسحاق هو صاحب الفضل المبكر في وضع كثير من المصطلحات الطبية العربية، بلغة ذكية معبرة وفي مقدمة هذه المصطلحات تسمياته لطبقات العين: الشبكية، الصلبة، الملتحمة، القرنية، المشيمية.

● في التاريخ الإكلينيكي كان حنين بن إسحاق من أطباء العيون الممتازين، وله في هذا التخصص الدقيق كتابه الأعظم : (العشر مقالات في العيّن) .

% يذكر في المقالات الستة الأولى طبيعة العين وتركيبها، وطبيعة الدماغ ومنافعه والعصب الباصر، والروح الباصر، وجملة الأشياء التي لا بد منها لحفظ الصحة واختلافها، وأسباب الأمراض الكائنة في العين.

% ويذكر في الأربع المقالات الأخيرة، قوى جميع الأدوية عامة (السابعة)، وأجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها (الثامنة) ثم مداواة أمراض العين (التاسعة) .

% وفي المقالة العاشرة يذكر الأدوية المركبة الموافقة لأمراض العين، كما يذكر القوي والتأثيرات المختلفة للأدوية والمصطلحات الدالة على ذلك. كما يذكر في هذه المقالة طرق تحضير الأدوية المركبة لعلاج أمراض العين، فيتكلم عن تحضير مراهم العين (الشيافات)، وقد أورد قائمة بأربعين مركبًا منها وأربعة أكحال نقلها عن الأطباء اليونانيين .

- كتب حنين بن إسحاق كتابه الأعظم : (العشر مقالات في العين) على مدى عشرين عامًا لم يكن حنين نفسه فيها على نفس الدرجة من التفرغ للتأليف ، ولهذا فإنّ بعض موضوعاته كتبت موجزة، على حين أن البعض الآخر مطول .
- بهذا الكتاب نال حنين بن إسحاق منصب رئيس الأطباء في بغداد .
- اهتم المستشرق ماكس مايرهوف بدراسة تأثير كتاب حنين بن إسحاق على كتب الطبّ في أوربا.
- وبفضل العلم الصيدلي الوافر في كتاب العشر مقالات يعد حنين بن إسحاق من الرواد الأوائل للعلوم الصيدلية أيضًا.
- ولحنين بن إسحاق كتاب ثان في أمراض العيون «المسائل في العين» .
    - ألفه على هيئة أسئلة وأجوبة حتى يفيد منه ابناه داود وإسحاق .
    - يقال: إن هذا الكتاب حوى ٢٠٩ مسائل.
- وبالإضافة إلى هذين الكتابين فإن لحنين بن إسحاق أيضًا في طب العيون :

○ «اختبار أدوية العين».

○ «كتاب في الرمد» .

○ «كتاب في تركيب العين وعللها وعلاجها».

لحنين بن إسحاق ما يقرب من مائة كتاب أخرى في العلوم الطبية لعله ألفها بتصرف مما ترجمه إضافة إلى بلورة خبرته العريضة، وقد أورد ابن أبي أصيبعة قائمة لمؤلفاته العربية وفي مقدمتها كتاب «المسائل في الطب» وقد وضعه (على نحو ما وضع كتابه المسائل في العين) على هيئة أسئلة وأجوبة مما يدلنا على أنه مارس التعليم الطبي المتقدم وتمرس به، وقد ساعده في تأليفه ابن أخته حبيش بن الأعسم، وقد شرح هذا الكتاب كثير من الأطباء اللاحقين ومنهم ابن النفيس، والرحبي، واللبودي، وابن المنفاخ، والنيلي، والدخوار، وابن دقيق، وابن أبي صادق.

● وله من التآليف المبكرة في العلوم الطبية :

○ «تحفة الألباء وذخيرة الأطباء».

○ «امتحان الأطباء».

○ «النكح».

○ «فيمن يولد لثمانية أشهر».

○ «كتاب في أن الطبيب الفاضل لابد أن يكون فيلسوفا».

○ «في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها».

○ «المدخل إلى الطب».

● وله رسائل في موضوعات مهمة في الممارسة الطبية:

○ «في الدغدغة».

○ «في أوجاع المعدة».

- ○ «في البقول وحواشيها».
- ○ «في ماء البقول».
- ○ «في الفواكه ومنافعها».
- ○ و«الأغذية».
- ○ «آلات الأغذية وتدبيرها وأمر الدواء المسهل».
- ○ «الفرق بين الغذاء والدواء المسهل».
- ○ ومقالة «في تولد الحصاة».

- **● وله موسوعة عن أعلام الأطباء هي «تاريخ الأطباء».**
- **● وله كتب في الصيدلة :**

- ○ «في أسماء الأدوية المفردة على حروف المعجم».
- ○ «في أسرار الأدوية المركبة».
- ○ «في الأدوية الحرقة» .
- ○ «خواص الأدوية المفردة».
- ○ «أقرباذين» .

- **● ومن الكتب الفريدة التي ترجمها حنين:**

- ○ «الرسالة الشافية في أدوية النسيان»، وهي خاصة بثمر البلاذر المخصص لتنشيط الذاكرة..

- **● ولحنين مؤلفات في علوم أخري :**

- ○ «مختصر في تاريخ الكيميائيين».
- ○ و«مقالات».

- «في السبب الذي من أجله صارت مياه البحر مالحة».
- «في المد والجزر».
- «في تولد النار بين الحجرين».

- و لحنين بن إسحاق رسائل موجزة في علوم متعددة تنطق بسعة أفقه واطلاعه :

- «في الضوء وحقيقته»
- «في الأوزان والأكيال».
- «مقتطفات من رسالة المذنبات».
- «في ذوات الذنب».
- «ألفاظ الفلاسفة في الموسيقي» .
- «نوادر فلسفية» .
- «القول فيما يستجيب ولا يستجيب من شهور السنة» .
- «مجالس الحكماء» .
- «اجتماعات الفلاسفة في بيت الحكمة في الأعياد وتفاوض الحكمة بينهم».
- «آداب الفلاسفة» .
- «كتاب في المنطق» .
- «كتاب في النحو».
- «كتاب في أفعال الشمس والقمر».

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل الحادي عشر

الرازي (٩٢٣م)

● هو أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي العالم والطبيب .

● الرازي هو أكثر وأول الأطباء في العصور الوسطى ممارسة للطب بطريقة شاملة وموسوعية، متفوقًا على جالينوس نفسه .

● وصفته زجريد هونكه في كتابها شمس الله تسطع على الغرب بأنه أحد أعظم أطباء تاريخ الإنسانية .

● أطلقت جامعة برنستون الأمريكية اسم الرازي على جناح من أكبر أجنحتها.

● وضعت كلية الطب بجامعة باريس نصبًا تذكاريًا للرازي و صورته في شارع سان جيرمان بباريس.

● مدح الشاعر الإنجليزي القديم جوفري تشوسر الرازي في إحدى قصائده المشهورة في كتابه «أقاصيص كونتربري» .

ونأتي إلى بعض الملامح الناطقة بأوليته وريادته :

● الرازي هو من أرسى دعائم الطب التجريبي على الحيوانات، فقد كان يجرب بعض الأدوية على القرود فإن أثبتت كفاءة وأمانًا جربها مع الإنسان.

● ولقد كان من نتيجة اتباعه هذا الأسلوب العلمي أنه حقق سبقًا علميًا في كثير من إنجازات الطب .

● هو أول مبتكر لخيوط الجراحة، وقد ابتكرها من أمعاء القطط، وقد ظلت تستعمل بعد وفاته لعدة قرون، وهذه الخيوط هي المعروفة بخيوط أمعاء

القط..(cat gut).. ولم يتوقف الجراحون عن استعمالها إلا منذ سنوات معدودة في أواخر القرن العشرين عند اختراع أنواع أفضل من الخيوط.

- الرازي هو أول من وصف عملية استخراج الماء من العيون..
- هو أول من فرق بين النزيف الوريدي والنزيف الشرياني، واستخدم الضغط بالأصابع لإيقاف النزف الوريدي، واستخدم الربط لإيقاف النزيف الشرياني.
- الرازي هو أول من أرجع سبب الإصابة ببعض الأمراض إلى أسباب وراثية.
- كان الرازي أول طبيب يتحدث عن الحساسية والمناعة، وله أطروحة في أسباب الزكام في فصل الربيع، شرح فيها أسباب الإصابة بالزكام عند استنشاق الورود في فصل الربيع .
- هو أول من اعتبر الحمَّى عرضًا لا مرضًا....
- وأول من اكتشف أن الحمى هي الطريقة التي يدفع بها الجسد الداء عن نفسه.
- الرازي هو أول من وصف وفرّق بين مرضى الجدري والحصبة على نحو دقيق ، ولم يكن هذا التفريق معروفا لتشابه الأطوار الأولى للمرضين، و قد سجل هذا الإنجاز في كتابه «رسالة في الجدرى والحصبة».
- هو أول من وصف مرض الطاعون وصفًا دقيقًا .
- وهو أول من استخدم الأفيون في علاج حالات السعال الجاف..
- وهو أول من أدخل الأدوية الملينّة ..
- هو أول من صنع مراهم الزئبق..

ونأتي إلى بعض الممارسات التي تفوق فيها :

• كان الرازي حريصًا على سؤال المريض عن كل ما يتعلق بالمرض وكان يقول: «إن الطبيب ينبغي ألا يدع مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن يقوله عن علته».

• ثم كان يقوم بفحص وقياس العلامات الحيوية كالحرارة والنبض.

• بلغ الرازي من الدقة درجة أذهلت من قرأ تعليقاته على الحالات المرضية التي وصفها ، والواقع أنه كان يضع مرضى المستشفيات تحت الملاحظة الدقيقة المستمرة لتسجيل كل معلومة مفيدة في كشف سبب المرض، أو في وصف العلاج..

• كان الرازي يجيد وصف بول ودم المريض ويستنتج منهما معلومات تفيده في العلاج..

• قدم الرازي شروحًا جميلة وعميقة للأمراض الباطنية والأطفال والنساء والولادة والأمراض التناسلية والعيون والجراحة .

• لما كلفه الخليفة العباسي باختيار مكان مناسب لإنشاء مستشفى كبير في بغداد، اختار أربعة أماكن تصلح لبناء المستشفى، ثم بدأ في المفاضلة بينها، وذلك بوضع قطعة لحم طازجة في الأماكن الأربعة.. ثم أخذ يتابع تعفُّن القطع الأربع، ثم اختار المكان الذي وُضعت فيه آخر القطع تعفنًا لبناء المستشفى؛ لأنه أكثر الأماكن تميزًا بجو صحي، وهواء نقي يساعد على شفاء الأمراض.

• كثيرًا ما انتقد الرازي آراء العلماء السابقين نتيجة تجاربه المتكررة.

• كان ينصح بتجنب الأدوية الكيميائية إذا كانت هناك فرصة للعلاج بالغذاء والأعشاب.

• ألَّف كتابًا للرد على جالينوس أعظم أطباء اليونان وسمَّى الكتاب «الشكوك على جالينوس» ، وذكر في هذا الكتاب الأخطاء التي وقع فيها جالينوس، والتصويب الذي قام هو به لهذه الأخطاء، وكيف وصل إلى هذه النتائج..

■

• ولد الرازي في مدينة الري بالقرب من طهران سنة ٨٦٤م . ويقال في بعض المصادر : إنّه ولد في العام التالي أي في سنة٨٦٥م .

• اجتهد الرازي في تحصيل كل ما يقع تحت يده من معلومات.

• في شبابه درس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب وكان يحب الشعر والموسيقي وفي كهولته أحب الطبّ .

• أمضى الرازي ريعان شبابه في مدينة السلام بغداد، وكان من رأيه أن يتعلم الطلاب صناعة الطب في المدن الكبيرة المزدحمة بالسكان، حيث يكثر المرضى ويمارس المهرة من الأطباء مهنتهم.

• بعد إتمام دراساته الطبية في بغداد، عاد الرازي إلى مدينة الري بدعوة من حاكمها، منصور بن إسحاق، ليتولى إدارة مستشفى الري، وكما نعلم فقد ألّف الرازي لهذا الحاكم : «المنصوري في الطب» ثم «الطب الروحاني» وكلا الكتابين متمم للآخر.

• ذاع صيت الرازي في مدينة الري، ثم انتقل منها ثانية إلى بغداد ليتولى رئاسة المستشفي المعتضدي الجديد، الذي أنشأه الخليفة المعتضد بالله (٨٩٢– ٩٠٢م).

أمضى الرازي سنواته الأخيرة من حياته بمدينة الري، حيث أصابه الماء الأزرق في عينيه، وأصيب بالعمى، وعندما جاء أمهر جرّاح للعيون ليجري عملية جراحية لعينيه ، وشرح له تفصيلات الجراحة، شكره الرازي واعتذر عن إجراء العملية

بسبب الألم الذي ستسببه الجراحة به.

ونأتي إلى أستاذيته :

● أضاف الرازي إلى معارفه ما توصل اليه بالملاحظة والتجربة والاستنتاج.. وقال قولته المشهورة التي تعتبر الآن أهم قوانين العلم والطب :

«عندما تكون الواقعة التي تواجهنا متعارضة والنظرية السائدة يجب قبول الواقعة، حتى وإن أخذ الجميع بالنظرية تأييدًا لمشاهير العلماء..».

● كان الرازي أستاذا معنيا بنقل الخبرة، وكان يمارس الأستاذية في المدرسة الطبية في المستشفى العضدي ببغداد، وكان يجمع في تدريسه بين المنهجين: النظري والإكلينيكي؛ يدرس الكتب الطبية، وبعض المحاضرات، ويدير الحلقات العلمية، وفي ذات الوقت يمر مع طلبته على أسِرَّة المرضى.. يشرح لهم ويعلمهم وينقل لهم خبرته، وكان يُدرِّس لهم الطب في ثلاث سنوات، ويبدأ بالأمور النظرية ثم العملية، وكان في آخر السنوات الثلاث يعقد امتحانًا لطلبة الطب مكونًا من جزأين: الجزء الأول في التشريح، والثاني في الجانب العملي مع المرضى، ومن كان يفشل في الجانب الأول (التشريح) لا يدخل الامتحان الثاني.

● لما بلغ من الأستاذية ذروتها مارس التأليف، وتدوين المعلومات وكتابة الكتب الطبية .

● كان الرازي مؤمنا باستمرار التقدم في البحوث الطبية، ولا يتم ذلك، على حد قوله، إلا بدراسة كتب الأوائل، وهو يقول في كتابه «المنصوري في الطب» :

«هذه صناعة لا تمكن الإنسان الواحد إذا لم يحتذ فيها على مثال من تقدمه أن يلحق فيها كثير شيء ،ولو أفنى جميع عمره فيها ،لأن مقدارها أطول من مقدار عمر

الإنسان بكثير. وليست هذه الصناعة فقط بل جلّ الصناعات كذلك. وإنما أدرك من أدرك من هذه الصناعة إلى هذه الغاية في ألوف من السنين ألوف، من الرجال. فإذا اقتدى المقتدي أثرهم صار أدركهم كلهم له في زمان قصير. وصار كمن عمر تلك السنين وعنى بتلك العنايات، وإن هو لم ينظر في إدراكهم، فكم عساه يمكنه أن يشاهد في عمره. وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس وأشدهم عناية بهذا الباب. على أن من لم ينظر في الكتب ، ولم يفهم صورة العلل في نفسه قبل مشاهدتها، فهو وإن شاهدها مرات كثيرة، أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها ألبتة» .

• أكدّ الرازي هذا المعنى في كتابه «في محنة الطبيب وتعيينه» ، حيث نقل عن جالينوس قوله : «وليس يمنع من عني في أي زمان كان أن يصير أفضل من أبقراط» .

ونأتي إلى أسلوبه في تآليفه :

• كان الرازي عالمًا موسوعيًا من طراز رفيع . تمكن من العلم ثم بدأ ينقد ويحلل.. ثم وصل ، كما أشرنا من قبل ، إلى التأليف والإبداع.. وتمتع بتفكير عميق وتجارب متعددة ودراسة متأنية..

• طالع الطب اليوناني والفارسي والهندي بعد أن اتيحت ترجمة كتب تلك الأمم، فقرأها جميعًا.

• كان الرازي يدعو إلى الكتابة والتأليف وكان ينصح كل طلبته أن يسجلوا المعلومات التي يلحظونها في أثناء دراستهم وعلاجهم للمرضى - والتي لم تُذكر في الكتب السابقة وكان يقول: «إذا جمع الطالب أكبر قدر من الكتب وفهم ما فيها، فإن عليه أن يجعل لنفسه كتابًا يضمنه ما غفلت عنه الكتب التي قرأها».

● تميز الرازي بالأمانة العلمية التامة في كتاباته؛ فكان لا يذكر أمرًا من الأمور اكتشفه غيره إلا أشار إلى اسم المكتشف الأصلي، ولذلك حفلت كتبه بأسماء جالينوس وأبقراط وأرمانسوس وغيرهم، كما ذكر في كتبه يحيى بن ماسويه وحنين ابن إسحاق.

● وتمتاز مؤلفاته ايضا بأصالة البحث وسلامة التفكير . أما أسلوبه في الكتابة والتأليف والتشخيص فيعبر عن بالاعتداد برأيه الخاص حتى يصعب على قارئه أن يقول إنه نقل هذه الفقرات عن غيره .

● يزيد عدد كتب الرازي على المئتي كتاب في الطب والفلسفة والكيمياء وفروع المعرفة الأخرى. ويتراوح حجمها بين الموسوعات الضخمة والمقالات القصيرة، ويجدر بنا أن نشير إلى أن بعض مؤرخي الطبّ القدامى والمحدثين خلطوا في اعتبار «الحاوي في الطب» و«الجامع الكبير» . كأنهما كتاب واحد ، وذلك لترادف معنى كلمتي الحاوي والجامع.

● للرازي مخطوط في مكتبة بودلي بأكسفورد ، عنوانه «تجارب» مما كتبه ببغداد في حداثته، ونشر هذا النص مرفقا بمقتطفات في نفس الموضوع .

● أحصى له ابن النديم في كتابه (الفهرست) ١١٣ كتابًا و٢٨ رسالة ، جميعًا في مجال الطب.. ذكر ابن النديم في الفهرست والقفطي أنه كان قد دون أسماء مؤلفاته في (فهرست) وضعه لذلك الغرض، لكن النسخ المخطوطة لهذه المقالة ضاعت مع مؤلفات الرازي المفقودة.

ونأتي إلى شخصيته :

● كان الرازي ذكيًا في غاية الذكاء. وكان معتدا بعقله . وفي الفصل الأول من كتابه «الطب الروحاني» : (فضل العقل ومدحه) ، يؤكد أن العقل هو المرجع الأعلى الذي

نرجع إليه، (ولا نجعله، وهو الحاكم، محكوما عليه، ولا هو الزمام، مزموما ولا وهو المتبوع، تابعا، بل نرجع في الأمور إليه ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه).

● عرف الرازي بالكرم والسخاء وكان بارًا بأصدقائه ومعارفه، عطوفًا على الفقراء وبخاصة المرضى، فكان ينفق عليهم من ماله الخاص، ويجري لهم أحيانًا الرواتب الثابتة!!

● وكان يوصي تلامذته أن يكون هدفهم هو شفاء المرضى أكثر من نيل الأجور منهم، وأن يكون اهتمامهم بعلاج الفقراء كاهتمامهم بعلاج الأمراء والأغنياء..

● أما تواضع الرازي وتقشفه فقد عبر هو نفسه عنه فقال :

«ولا ظهر مني على شره في جمع المال وسرف فيه ولا على منازعات الناس ومخاصماتهم وظلمهم، بل المعلوم مني ضد ذلك كله والتجافي عن كثير من حقوقي. وأما حالتي في مطعمي ومشربي ولهوي ،فقد يعلم من يكثر مشاهدة ذلك مني أني لم أتعد إلى طرف الإفراط ،وكذلك في سائر أحوالي ... من ملبس أو مركوب أو خادم أو جارية» .

● كان الرازي مؤمنا بفلسفة سقراط الحكيم (٣٩٩ قبل الميلاد) وكان يدافع عن سيرة سقراط الفلسفية، فيقول:

«إن العلماء إنما يذكرون الفترة الأولى من حياة سقراط، حينما كان زاهدا وسلك طريق النساك. «ثم يضيف أنه كان قد وهب نفسه للعلم في بدء حياته» ؛لأنه أحب الفلسفة حبا صادقا، ولكنه عاش بعد ذلك معيشة طبيعية».

● وقد خصص الدكتور عبد الرحمن بدوي الفصل الأخير من كتابه «من تاريخ الإلحاد في الإسلام» لآراء الرازي الفلسفية في نقد الأديان. ومن الإنصاف أن نذكر

أن الرازي لم ينكر وجود الله بل أقر بوجوده، وقال بأنه منح العقل للإنسان ليفكر به.لكنّ آراءه الجريئة في نقد الدين النبوة تعرضت لنقد كثيرين منهم ابن سينا نفسه .

ونأتي إلى أشهر مؤلفاته :

• «الحاوي في علم التداوي» هو أكثر كتب الرازي أهمية وقد وصف بأنه بموسوعة عظيمة في الطب تحتوي على ملخصات كثيرة من مؤلفين إغريق وهنود إضافة إلى ملاحظاته الدقيقة وتجاربه الخاصة .

• وتتضح مهارة الرازي في هذا المؤلف الضخم الذي جمع كل الخبرات الإكلينيكية التي أتقنها مؤلفه ، وكل الحالات المستعصية التي عالجها، وتجلت في هذا الكتاب كفاءة الرازي ودقة ملاحظاته وغزارة علمه وقوة استنتاجه..

• ويكاد يجمع مؤرخو الرازي بأنه لم يتم الكتاب بنفسه ولكن تلاميذه هم الذين أكملوه.

• يقع الحاوي في اثنين وعشرين جزءا، ويشتمل على مئات من مشاهدات وتجارب لا تخلو من دقة وطرافة، وقد ترجم إلى اللاتينية منذ عهد مبكر. وطبع لأول مرة في بريشيا في شمال إيطاليا (١٤٨٦م) . كان بمثابة أضخم كتاب طُبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وكان مطبوعًا في ٢٥ مجلدًا، وقد أعيدت طباعته مرارًا في البندقية بإيطاليا في القرن السادس عشر الميلادي ، وترجم إلى إلى أكثر من لغة أوروبية .

• يذكر الدكتور عبدالحليم منتصر (١٩٩٢م) أنه قد ترجم بعد ظهوره إلى العبرية واللاتينية بالبندقية عام ١٤٩٥م وإستراسبرج عام ١٥٣٢ وبال عام ١٥٤١. لم ينشر الكتاب بأكمله، فقد ظهر الجزء الخاص بالعقاقير سنة ١٤٧١، والخاص بالجراحة سنة ١٤٩٧م والباطني سنة ١٥١٩م وأمراض النساء سنة ١٥٦٦م .

• ذكر ماكس مايرهوف أنه في عام ١٥٠٠ ميلادية كانت هناك خمس طبعات لكتاب الحاوي، مع عشرات الطبعات لأجزاء منه..

• ظل «الحاوي» بمثابة المرجع الطبي الرئيسي في أوروبا لمدة ٤٠٠ عام بعد تأليفه وظلت معظم الجامعات الأوروبية تستخدم الكتاب حتى القرن السابع عشر، وقد خصص الملك الفرنسي الشهير لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) اعتمادًا ماليًا كبيرًا من الذهب لينسخ له أطباؤه نسخة خاصة كي يكون مرجعًا لهم إذا أصابه مرض ما.

• وظلت كتب الرازي هي المراجع الرئيسية في جامعات هولندا حتى القرن السابع عشر.

• أما كتاب «المنصوري» فقد سماه بهذا الاسم تكريما منه لحاكم الريّ منصور ابن إسحاق وهو حاكم خراسان .

• بوّبه فى عشر مقالات تعتمد في الأساس على العلوم الإغريقية.

• وقد تناول فيه موضوعات طبية متعددة في الأمراض الباطنية والجراحة والعيون، وقد تعمَّد الرازي الاختصار في هذا الكتاب .

• يرى البعض أنه أوضح ترتيبا وأيسر تناولا من الحاوي ، وقد ترجم كذلك إلى اللاتينية. ونشر لأول مرة في ميلانو سنة ١٤٨١م . وتمت ترجمته عدة مرات إلى لغات أخرى منها الإنجليزية والألمانية والعبرية ! وظل مرجعًا لأطباء أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي.

• أما الكتاب الثاني الذي ألفه للأمير منصور فهو «الطب الروحاني» وقد ذكر فيه أن غايته من الكتاب هو إصلاح أخلاق النفس..

● وحضَّ في كتابه هذا على تكريم العقل، وعلى قمع الهوى، ومخالفة الطباع السيئة، وتدريب النفس على ذلك..

● للرازي كتاب رابع «طبّ الملوك» ، تناول فيه كيفية العلاج والوقاية من الأمراض والعلل من خلال اتباع النظم الغذائية. ويعتقد أنه كتب هذا الكتاب لعلية القوم الذين كان يعرف عنهم نهمهم، وغالبًا ما كانوا يصابون بأمراض المعدة.

● أما كتابه المقابل «طبُّ الفقراء» ، فقد وصف فيه الأمراض المختلفة وأعراضها ثم وصف طرق علاجها عن طريق الأغذية والأعشاب الرخيصة بدلًا من الأدوية مرتفعة الثمن أو التراكيب النادرة..

ونأتي إلى بعض مؤلفاته الأخرى :

● «الجدري والحصبة» وبه كان الرازي كما ذكرنا أول من فرق بين الجدري والحصبة، ودوَّن ملاحظات في غاية الأهمية والدقة للتفرقة بين المرضين، وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب في أوروبا أربع مرات بين عامي (١٤٩٨ و ١٨٦٩م)..

● «الأسرار في الكيمياء» والذي بقي مدة طويلة مرجعًا أساسيًّا في الكيمياء في مدارس الشرق والغرب.

● «أخلاق الطبيب» شرح فيه العلاقة الإنسانية بين الطبيب والمريض، وبين الطبيب والطبيب، وضمَّنه كذلك بعض النصائح للمرض في تعاملهم مع الأطباء..

● كتاب الشكوك على جالينوس.

● كتاب «في الفصد والحجامة» .

● كتاب «إنّ للعبد خالقا» .

● كتاب «المدخل إلى المنطق» .

● كتاب «هيئة العالم» .

● مقالة في «اللذة».

● كتاب «طبقات الأبصار» .

● كتاب «الكيمياء وأنها إلى الصحة أقرب» .

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلابد من الإشارة إلى إنجازات الرازي في الكيمياء :

● استخلص الرازي الكحول بتقطير موادّ نشوية وسكرية مختمرة. وكان يفيد من الكحول في استنباط الأدوية المتنوعة .

● حضّر بعض الحوامض، وما زالت الطرق التي اتّبعها في التحضير مستخدمة إلى الآن فهو أول من أشار إلى حامض الكبريتيك الذي أطلق عليه اسم زيت الزاج أو الزاج الأخضر.

● اشتغل الرازي بتعيين الكثافات النوعية للسوائل، وصنف لقياسها ميزانًا خاصًا أطلق عليه اسم الميزان الطبيعي.

● ويظهر تفوقه في الكيمياء، بتقسيمه المواد المعروفة في عصره إلى أربعة أقسام هي:

○ المواد المعدنية. ويذكر له أن قسّم المعادن إلى أنواع، بحسب طبائعها وصفاتها.

○ المواد النباتية.

○ المواد الحيوانية.

○ المواد المشتقة.

● تُوفي الرازي عن عمر بلغ ستين عامًا، وكانت وفاته في ٥ من شعبان ٣١١هـ/ ١٩ من نوفمبر٩٢٣ م).

الفصل الثاني عشر

الهراوي(٩٦١م)

الهرّاوي هو رائد علم العقاقير في الحضارة الإسلامية، شملت دراسته العقاقير المختلفة من نباتية وحيوانية ومعدنية، ونجح في توظيف معلومات الكيمياء المتاحة في عصره من أجل تصنيف وفهم ووصف العقاقير والسموم.

- هو علي بن علي الهرّاوي المكني بالموفق .
- ولد بمدينة هراة وإليها ينسب وتعلم بها .
- رزق الحظوة عند الأمير منصور بن نوح الساماني في بلاد ما وراء النهر .
- كان من الذين مارسوا الكيمياء واعتمدوا على التجربة وتكرارها،
- تمكن الهراوي من تحضير بعض العقاقير الطبية بواسط التقطير والتصعيد.
- توصل الهراوي إلى تحضير مادة تساعد، لأول مرة، على التحام العظام وجبر الكسور .
- نجح الهراوي في تحضير صبغة سوداء من أوكسيد النحاس، بعد تسخينه لدرجة عالية.
- نجح الهراوي في تجاربه في المزج بين المواد المعدنية والحيوانية والنباتية مع التعويل على ما نسمية الآن في الكيمياء الآن : العوامل المساعدة .
- نجح في تحضير الزاج الأرزق السامّ من مركبات النحاس وفي تحضير سموم أخرى من مركبات الرصاص الأبيض.
- جدول الهراوي الفرق بين كربونات الصوديوم (النطرون) وكربونات

البوتاسيوم (القلي).

● وعرّف الهراوي خواص: الزئبق، وأوكسيد الزرنيخ.

● أشهر آثاره العلمية كتابه : «الأبنية في حقائق الأدوية»: وفيه قسم الأدوية بحسب تأثيراتها الدوائية إلى أربع مجموعات وذكر طريقة تركيب وتحضير هذه العقاقير وخواصها وطرق استخدامها وعرف فيه بـ

% ٤٦٦ عقارا مستحضرا من النباتات.

% ٧٥ عقارا مستحضرا من المعادن.

% ٤٤ عقارا من مشتقات حيوانية .

* * * *

الفصل الثالث عشر

التميمي(٩٩٠م)

● طبيب مسلم ضرب بسهم وافر في العناية المبكرة بالطب الوقائي، والإصحاح البيئي والتحكم في الملوثات والسموم، وتنقية الماء والهواء حتى ليمكن لنا اعتباره بمثابة رائد علوم البيئة.

● هو محمد بن أحمد بن سعيد أبو عبدالله التميمي .

● ولد بمدينة القدس ونشأ فيها وفيها بدأ دراسته للطبِّ ، وارتحل لطلب العلم واستقر بمصر، وعمل في حكومة الخليفة الفاطمي العزيز بالله.

● هو صاحب فكرة الآلات التي تتولى تصفية الماء بالخزف، وذلك بوضع عدة طبقات من الخزف فوق بعضها البعض . وهو صاحب المصطلح الذي سميت به هذه التقنية: «التصفية بالخزف المخلخل».

● كان من أوائل الذين اكتشفوا طرق المكافحة الكيماوية للهوام من خلال غازات تبث في الهواء لمحاربة الوباء أو للتحرز منه، وهو الأسلوب الذي لا يزال يستخدم إلى الآن، في تنقية الهواء من الهوام والحشرات بالرش .

● كتابه «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الوباء» هو أهم كتبه من الناحية العلمية، وكان قد بدأ في تأليفه قبل أن يأتي إلى مصر، وفيه شرح وافٍ وغير مسبوق لطرق العدوى عن طريق الهواء.

● «كتاب في الترياق»: وفيه شرح لتركيب ترياق سماه: «مخلص النفوس» وهو ترياق أعده لمكافحة السمومات الناشئة عن لسعات الأفاعي والثعابين والحيات المهلكة والعقارب.. ومن لدغات الرتيلاء.. إلخ.

● وله مجموعة أخرى من المؤلفات منها:

○ «رسالة في صنعة الترياق الفاروقي».

○ «المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات من الأدوية».

○ «كتاب الفاحص والأخبار».

○ «حبيب العروس وريحانة النفوس».

* * * *

الفصل الرابع عشر

علي بن عباس المجوسي(٩٩٤)

● ولد بالأهواز، ببلاد فارس، واعتنق الإسلام، ومع هذا لا يزال يعرف في اسمه بديانته السابقة المجوسية .

● كان من أطباء العرب الكبار، وأحد أبرزهم في التأليف الطبي ، وهو في رأيي فنان فيلسوف قادر على ما سبق فيه الباقين .

● هو مؤسس علوم وظائف الأعضاء التشريحية .

● هو صاحب القول الموجز الذي نكرره كالمسلمات بأن أبقراط يميل إلى الإيجاز والغموض على حين أن جالينوس يميل إلى التوسع والتطويل وقلة العناية .

● وهو الذي فرّق بين كتابي الرازي المشهورين فقال عن «المنصوري» : إنه شديد الاختصار وعن «الحاوي» إن ضخامته وتكاليفه تجعل الحصول عليه مطلبًا وعرًا.

● ظل كتابه : «كامل الصناعة الطبية» المعروف بالكتاب الملكي بمثابة المرجع الأوفي لدراسة الطب طيلة الفترة التي سبقت ظهور كتاب ابن سينا «القانون» الذي أزاحه عن موقعه .

● كان العلماء يرون أن «الملكي» يمتاز عن «القانون» بالتفصيلات العلمية والخطوات الإجرائية، وأنه يعول عليه في الممارسة أكثر من القانون الذي هو كتاب علم، أما الملكي فقد كان كتاب فن وممارسة أيضًا .

● ألف علي بن عباس هذا الكتاب للملك عضد الدولة الذي ينسب إليه

المستشفى العضدي، ويقع الكتاب في عشرين جزءًا.

● يدلنا هذا الكتاب على عالم وطبيب من طراز موسوعي ومتخصص معًا إلى أقصى درجات الإحاطة .

● ضمّن علي بن عباس مقدمة كتابه نقدا لكثير من أسلافه الأطباء الكبار سواء في ذلك الأطباء العرب (كالرازي) واليونانيون (أبقراط وجالينوس) .

● ويبدو أنه أول ما ترجم إلى اللاتينية من كتب الطب العربي على يد قسطنطين الإفريقي في أوائل القرن الحادي عشر وذلك بعد موت مؤلفه بقليل.

● ولا شك في أن وضوحه وحسن ترتيبه جعلاه محببا إلى طلاب الطبِّ من الغربيين، وقد حرصت أجيالهم عرفوا على الإفادة منه إلى أن «كتاب القانون» لابن سينا.

● يضم الملكي عشرين مقالة عن النظريات الطبية، والأغذية الصحية والأعشاب الطبية، وطبّ النساء. ويعد من أوائل الكتب الطبية التي أفردت قسمًا للحديث عن الأمراض الجلدية .

● ومن الطريف أن علي بن عباس صاحب هذا الكتاب المتميز لم تشتهر له كتب أخرى بنفس القدر خلافا لما كان شائعًا من تعدد المؤلفات المشهورة لَمَنْ كانوا يمارسون التأليف من علماء الحضارة الإسلامية، وليس معنى هذا أنه لم يؤلف غيره ولكن معناه أنه هو كتابه الوحيد المشهور .

● **وقد ألف علي بن عباس كتابه «الملكي» في جزئين :**

○ خصص الأول لنظريه الطب وعلومه الأساسية وباثولوجيا الأمراض وصورها الإكلينيكية فضلًا عن عوامل الإصحاح والتغذية، وقد فصّل

القول في هذه العلوم كلها من خلال عشر مقالات مطولة .

○ أما الجزء الثاني فجعله لطرق العلاج المختلفة . وخصص المقالة الأخيرة من هذا الجزء لما يقابل العلوم الصيدلية في عصرنا الحالي، وقد استعرض في مقالة الأدوية المركبة ثلاثين مجموعة من المجموعات الدوائية.

● يرى بعض مؤرخي الطب في كتابات علي بن العباس إرهاصات لبعض اكتشافات ابن النفيس ومَنْ لحقوه فيما يتعلق بالدورة الدموية .

● من طريف صياغات علي بن عباس وصفه للنبض بأنه «منادٍ أخرس يخبر عن أشياء خفية ذلك أن القلب والعروق الضوارب [أي الأوعية النابضة] تتحرك كلها حركة واحدة في مثال واحد في زمان واحد، ولذلك صرنا نتعرف جل حركة القلب من حركة الشريان».

● وعلي بن عباس هو أول من وصف الأنورزيما واستئصالها جراحيا.

● وكان أول من استخدم كمادات الخلّ في تعقيم الآلات الجراحية.

● **ولعلي بن عباس إنجازات في طب النساء والتوليد :**

○ وصف التهاب عنق الرحم وحركته الدافعة للجنين .

○ ويؤثر عنه أنه كان يقوم بتفتيت رأس الجنين إذا وجده خطرًا على حياة الأم .

● **وفي جراحة العظام والكسور .**

○ كان أول من مارس تجبير الفك السفلي في حالات الكسر.

● **ولعلي بن عباس إنجازات في اللياقة البدنية والأمراض العصبية والنفسية :**

○ كتب في معالجة الصرع.

- ودعا في كتابه الأشهر : «كامل الصناعة الطبية»، لأول مرة، إلى ضرورة الابتعاد عن الهم والغم لأنها تغير مزاج البدن وتنهكه.
- أشار إلى أن الرياضة الخاصة بالتنفس،كفيلة بجذب الهواء النقي إلى الرئة لتوسيع الصدر.
- دعا إلى ممارسة الرياضة البدنية، لأنها على حد تعبيره أفضل ما يستعمله الإنسان لحفظ صحته، وكان يقول: إن أكثرها نفعا في رأيه ما كانت قبل تناول الطعام.

% وكان يعدد فوائد الرياضة البدنية بطريقة فسيولوجية فيقول :

% تقوي الأعضاء وتصلبها.

% وتحلل فضلات الجسم .

% وتقوي حرارة الجسم الغريزية .

% وتعين على جودة الهضم.

- ومن المؤلفات المنسوبة إلى علي بن عباس :
  - «كتاب في الطب».
  - «رسالة في الفصد».
  - «مداوة الأمراض».
  - «الأدوية المفردة».
  - «منتخب من كتب في أدوية نافعة وأشربه نافعة».

* * * *

الفصل الخامس عشر

ابنُ الجزار (١٠٠٥م)

● هو أشهرُ أطباء تونس في الحقبة الإسلامية.

● كما أنه بمثابة رائد علم الأجنة في الطب الإسلامي.

● هو أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد القيراوني.

● ولد في مدينة القيروان التونسية في أسرة طبية، وكان والده وعمه من المشتغلين بالطب، وتعلم على يديهما وعلى يد معاصريها .

● تهيأت له بالموازاة لهذا مكتبة طبية كبيرة .

● **من كتبه** :

● «سياسة الصبيان وتدبيرها» : مؤلف طبي مطبوع شامل يقع في اثنين وعشرين بابا اعتمد فيه على كل ما أمكنه جمعه من معلومات تتعلق بتكوين الأجنة والعناية بالحامل والجنين وحديثي الولادة .

● «طب الفقراء والمساكين» : مخطوط اتجه فيه توجهًا اجتماعيا طبق فيه ما نعرفه الآن بدراسات الجدوى الطبية الهادفة إلى علاج المجموعات الكبيرة من محدودي الدخل بأقل التكاليف .

● «زاد المسافر وقوت الحاضر» : مخطوط توجد منه نسخ في باريس وألمانيا والهند وهولندا والرباط وغيرها، مع أنه مخطوط فقد ترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، ومن هذه الترجمات مخطوطات أقدمها موجود في الفاتيكان.

● كتابه «الاعتماد» في الأدوية المفردة ألفه لأحد ملوك الفاطميين بإفريقيا، وهو

مخطوط توجد منه نسخ في الجزائر وأيا صوفيا.

● ومن كتبه :

○ «قدم إخراج الدم» .

○ «رسالة في النفس» .

○ «أسباب الوباء بمصر والحيلة في دفعه».

● بالإضافة إلى كتاباته الطبية كتب ابن الجزار في التاريخ كتابين مهمين :

○ **الأول:** «التعريف بصحيح التاريخ» .

○ **والثاني:** «دولة المهدي العبيدي وظهوره بالمغرب».

* * * *

الفصل السادس عشر

علي الكحال(١٠٠٩)

● علي الكحال هو المؤسس الأول لطب العيون في العالم كله.

● وهو واحد من أبرز العلماء العرب الذين حظيت مؤلفاتهم في طب العيون باهتمام ودراسة علماء أوربا ، وكان مايرهوف في مقدمة الدارسين لآثاره .

● ولد علي بن عيسى الكحال بمدينة بغداد وعاش بها، وفيها توفي عن عمر ناهز السبعين عاما.

● تبحر في دراسة كتابه حنين بن إسحاق الأشهر: «العشر مقالات في العين» .

● في كتابه الأشهر: «تذكرة الكحالين» ظهر بوضوح تفوقه في علوم العين وتشريحها وأمراضها وأدويتها وجراحاتها وبلور ممارسته العملية لطب وجراحة العيون .

● يتكون كتابه «تذكرة الكحالين»، من ١٢٢ فصلا ألحق به موسوعة أبجدية للأدوية المفردة المستخدمة في علاج أمراض العيون، (١٤٣ عقارا لمعالجة ١٣٠ مرضًا من أمراض العيون).

● كان أول مَن استخدم التنويم المغناطيسي والتخدير بالعقاقير أثناء إجرائه لجراحات العيون.

● كان علي الكحال رائدًا لما قدْ نسميه الآن جراحةَ الوجه والرأس ،فقد وصف التهاب الشريان الصدغي والقحفي، و لاحظ العلاقة بين التهاب هذه الشرايين والصداع النصفي، والتهاب العضلة الصدغية.

• وهو أيضًا أول من أجرى ، جراحة سلِّ شرياني الصدغين الملتهبين، وكيهما ليعالج نزلات الصداع النصفي المزمنة، ولينقذ الرؤية من الاضطراب، والبصر من التلف، وقد سجل خطوات إجراء هذه الجراحة في كتابه : «تذكرة الكحالين».

• ترجم كتابه «تذكرة الكحالين» إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى عدة مرات.

• وترجم إلى العبرية والفارسية والتركية أيضا،ثم ترجم إلى الألمانية والإنجليزية.

• كان علي الكحال أيضًا رائدًا من رواد العلوم الصيدلية، وهو ما تجلى في تأليفه المحكم والمبدع لما يمكن لنا أن نسميه «الموسوعة الملحقة بتذكرة الكحالين» .

• كما ألف كتابًا في العقاقير ذات الأصل الحيواني بعنوان «المنافع التي تستفاد من أعضاء الحيوانات».

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل السابع عشر
الزهراوي (١٠١٣م)

• وصف سارتون الزهراوي بأنه أكبر جراحي الإسلام وقال عنه الدكتور نجيب محفوظ : إنه فخر الجراحة العربية.

• وكلا الحكمين صحيح، بيد أن تأمل تراثه العلمي يدلنا على أنه كان أيضا أكبر صيادلتهم ومن أكبر أطبائهم الباطنيين فضلًا عن تفوقه الساحق في ثلاثة ميادين أخرى هى: التشريح، وتصميم الآلآت الجراحية وتنفيذها، والتأليف الطبي.

• وتنبئ كتاباته في وصف تركيب الأعضاء عن أنه مارس التشريح لفترات طويلة..

• هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (نسبة إلى مدينة الزهراء وهي من ضواحي قرطبة حيث ولد) القرطبي(نسبة إلى الإقليم) الأنصاري (حيث يعود أصله إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) .

• عاش الزهراوي عمرًا طويلًا (٧٧ عاما) مكنه من أن يبلور خبرته وأفكاره ونظرياته.

• مارس الزهراوي الطب والجراحة وعمل بهما وكان بمثابة الجراح الأول في بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المنتصر (الحكم الثاني).

• تحققت شهرته في العالم الغربي بعد ترجمة كتابه «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، وقد ظل هذا الكتاب بمثابة مرجع أوروبا الجراحي الأول لمدة خمسة قرون.

وإلى الزهراوي (١٠١٣) يعود الفضل في كثير من التقدم الطبي والعلمي الذي لا نزال ننعم بآثاره :

- فعلى يديه تقدمت صناعة الآلات الجراحية وتصميمها .
- وضع أسسا منهجية وتجريبية للأساليب الجراحية الواجب اتباعها في علاج الالتهابات والخراجات .
- هو أبرز من استعمل ربط الشرايين لمنع النزف .
- وهو صاحب أسلوب إدخال القساطر المعدنية إلى الجسم، وهو الأسلوب الذي لا نزال نتبعه .
- وهو (بعد الرازي) مَنْ توسع في استخدام الخيوط الجراحية المصنوعة من أمعاء الحيوان لخياطة الجروح .
- كما أنه طور تقنيات الكي تطويرًا ارتقى بها إلى أرقى درجات الممارسة الطبية.
- هو أول من وصف مرض الهموفيليا في كتابه «التصريف»، حيث قال: «إن رجال إحدى الأسر كانوا يموتون من نزيف الدم بعد الإصابة بجروح بسيطة» وبهذا كان أول من أشار إلى الطبيعة الوراثية لمرض الهموفيليا (الناعور) .
- وفي ميدان أمراض النساء كان الزهراوي أول من وصف الحمل المتنبذ .
- وفي ميدان الطب الباطني تميز الزهراوي بالدقة وذكاء الملاحظة، وقد وصف الأعراض السابقة على حدوث السكتة الدماغية كالصداع الشديد المفاجئ ، والدوار والتخيلات البصرية.
- **وقسم الزهراوي السكتة الدماغية من حيث مآلها إلى ثلاثة أنواع :**
  - قاتلة .
  - مزمنة لا يبرأ منها المريض.

○ قابلة للبرء .

• لخص الزهراوي بعض العلامات الدالة على سوء حالة المريض كخروج الزبد من الفم في مريض فاقد للوعي في حالة السكتة المميتة.

كان الزهراوي يعتز بالطبّ وبممارسته ومما أثر عنه قوله : «صناعة الطبٍّ طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئتها».

وكان الزهراوي يدرك مبكرًا الفارق بين مستويين من ممتهني الطب فيقول: «إن الأطباء بالاسم كثيرة وبالفعل قليلة» .

• ألف الزهراوي كتابه «التصريف» في ثلاثين مقالة متوالية ، وفي هذا الكتاب تنظيم جيد لعلوم الطب لا يزال يحظى بالاحترام حتى يومنا هذا من حيث إنّه يفرق بين موضوعات ومدخلات لابد من التفريق بينها، ويجمع موضوعات متشابهة ومترابطة سواء من حيث مبدؤها أو من حيث توظيفها لخدمة العلم الطبي .

• في تبويب كتابه لم يكن الزهراوي يميل إلى العناوين الضخمة الكبيرة ، ولكنه يذكر عناوين ما هو موجود على نحو متواضع ودقيق، وهو المنهج الذي لا يتأتي إلا في الأعمال الأصيلة التي تحرص على دقة التعبير عما تحتويه بالفعل دون أن تحمله أكثر من هذا .

• اشتهر الكتاب بما فيه من آلات جراحية جديدة، رسمها الزهراوي ، وحدد طرائق استعمالها. وشرح أيضا عمليات جراحية كشق البطن، وتفتيت حصوات المثانة.

• ويضم كتاب التصريف جزءًا خاصًا بالعقاقير، وطرق تحضير الأدوية

بالتقطير والتسامي .

• وقد قسمه الزهراوي إلى ثلاثين مقالة (حسب تعبيره) وهو ما يوازي ثلاثين بابًا أو فصلًا أو قسمًا بلغة اليوم، وقد اكتشف المترجم الشهير جرارد هذا الكتاب وترجم مقالاته الثلاثين إلى اللاتينية.

• وعلى الرغم من شهرة هذا الكتاب كمؤلف جراحي إلا أنه لا يحوي إلا مقالتين مخصصتين للجراحة (وفي بعض الآراء يمكن التوسع بأنها ثلاثة)، أما باقي المقالات فخاصة بالأدوية والعلاج الدوائي.

• ألف الزهراوي كتابا مهمًا في العلاج الدوائي عنوانه «مقالة في أعمار العقاقير المفردة والمركبة». وقد وردت في الكتاب معلومات مهمة عن تاريخ المادة الطبية، وتاريخ الكيمياء والفنون الصناعية.

• كانت كتاباته الصيدلية بمثابة مصدر أصيل اقتبس منه ابن البيطار (١٢٤٨م) الكثير في كتابته الموسوعية عن العقاقير .

• أما ممارسته للتحضير الصيدلي فقد بلغت القمة في الريادة .

• كان ابن العوام يقول: إنه ليس أحسن من طريقة الزهراوي في استخراج ماء الورد.

• وصف الزهراوي بدقة كيف يصنع قالب من الأبنوس أو البقس أو العاج ينقش فيه اسم الأقراص.

• في نسخة باريس الخطية من كتابه رسم لشكل هذه القوالب ، وفيها أيضًا رسم المرشحات.

• لم يقتصر الزهراوي على تحضير الأدوية ، والعقاقير من النباتات والعناية

بالاحتفاظ بالأجزاء المجففة منها ، بل إنه حدد معدن الأوعية الأفضل لحفظ كل منها .

● اهتمّ الزهراوي بتبييض الخل وغسل الزيوت، ووصف الجهاز المستعمل في تقطير المياه العطرية ، ووصف كثيرًا من المواد الأخرى المستعملة في تحضير الأدوية، كما شرح كثيرًا من المصطلحات الفنية.

● حرص الزهراوي في كتاباته الصيدلية على النص على مواطن النباتات حيث تنمو، ووصف هذه النباتات وكيفية الحصول منها على الجزء أو الأجزاء التي تستعمل في الطب، وكذلك أوان جمعها.

وربما كان خير ما يصور تفوق عقلية الزهراوي الطبية أن نورد أسماء المقالات الثلاثين التي ضمها كتاب الأشهر «التصريف لمن عجز عن التأليف» ذلك أن قراءة المجالات والميادين التي غطتها هذه المقالات تبنئ عن مدى إحاطته بالعلوم الطبية من ناحية ،وتبنئ من ناحية أخرى عن قدرته المنهجية والفكرية في التأليف والتعليم الطبي، ووضع الهيكل المنهجي للممارسة الطبية وهو ما أهله لأن يظل بمثابة معلم بارز حتى فيما بعد وفاته.

○ **المقالة الأولى** : في الاستقصاءات والأمزجة وتركيب الأدوية وتضم نبذة عن التشريح ومدخلا للكتاب.

○ **المقالة الثانية** : في تقاسيم الأمراض وعلاماتها والإشارة إلى علاجها.

○ **المقالة الثالثة** : في صفات المعاجين القديمة التي تخمر وتدخر.

○ **المقالة الرابعة** : في صناعة الترياق الكبير وسائر الترياقات والأدوية المفردة في جميع السموم.

- المقالة الخامسة : في صفات الإيارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها.
- المقالة السادسة : في صفات الأدوية المسهلة من الحبوب المرة المدبرة في جميع الأمراض.
- المقالة السابعة : في صفات أدوية القيء والحقن والفرزجات والشيافات والفتل.
- المقالة الثامنة : في الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم المألوفة المأمونة
- المقالة التاسعة : في أدوية القلب من الشيافات وأدوية المسك وما أشبه ذلك.
- المقالة العاشرة : في صفات الإطريفلات والبنادق المسهلة.
- المقالة الحادية عشرة : في صفات الجوارشنات والكمونيات وما أشبه ذلك من المعاجين.
- المقالة الثانية عشرة : في أدوية الباه و الأدوية المسمنة للأبدان والمهزلة والمدرة للبن ونحو ذلك .
- المقالة الثالثة عشرة : في الأشربة والسكنجبينات والربوب.
- المقالة الرابعة عشرة : في النخانخ والمطبوخات والنقوعات المسهلة وغير المسهلة.
- المقالة الخامسة عشرة : في المربيات ومنافعها وحكمة تربيبها وإدخارها.
- المقالة السادسة عشرة : في السفوفات المسهلة وغير المسهلة.
- المقالة السابعة عشرة : في الأقراص المسهلة وغير المسهلة.
- المقالة الثامنة عشرة : في السعوطات والقطورات والبخورات والدرورات والغراغر.
- المقالة التاسعة عشرة : في الطيب والزينة وصناعة الغوالي وما أشبهها.
- المقالة العشرون : في الأكحال والشيافات واللطوخات.

- المقالة الحادية والعشرون : في السنونات وأدوية الفم والحلق وما أشبه ذلك.
- المقالة الثانية والعشرون : في أدوية الصدر والسعال خاصة.
- المقالة الثالثة والعشرون : في الضمادات لجميع علل البدن من القرن (الرأس) إلى القدم.
- المقالة الرابعة والعشرون : في صناعة المرهم النخلي وسائر المراهم لجالينوس وغيره.
- المقالة الخامسة والعشرون : في الأدهان ومنافعها وأحكام استخراجها.
- المقالة السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى وكثير من الأصحاء مرتبة على الأمراض.
- المقالة السابعة والعشرون : في طبائع الأدوية والأغذية وإصلاحها وقواها وخواصها.
- المقالة الثامنة والعشرون : في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية وما يتصرف في الطب من ذلك.
- المقالة التاسعة والعشرون: في تسمية العقاقير باختلاف اللغات وبدلها وأعمارها وأعمار العقاقير المركبة وغيرها وشرح الأسماء المركبة الواقعة في كتب الطب والأكيال والأوزان.
- المقالة الثلاثون : في العمل باليد من الكي والشق والبط والجبر والخلع مشروحا مختصرًا.

*****

الفصل الثامن عشر

ماسويه المارديني (١٠١٥م)

• هو ثاني مَن وضع دستورا للأدوية في العالم ، وعلى الرغم من أنه لم يكن صاحب أول دستور للأدوية إلا أن كتابه «المادة الطبية»، يعد أكثر أهمية من دستور كان قد صدر في مدينة نيسابور بإيران، واعتبر أقدم دستور للأدوية في العالم .

• ولد ماسويه المارديني بمدينة ماردين التي تقع الآن على الحدود السورية التركية وإليها ينسب .

• درس ماسويه المارديني الطب والصيدلة في مدينة بغداد ، ويقال : إنه أدرك مجلس ابن سينا ، ثم ارتحل إلى القاهرة، وعمل في بلاط الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، وصار حجة في الصيدلة، وفي الجراحة .

• اعتبر «دستوره» عاملا أساسيا في ظهور الأدوية ، كما كان العمدة في الصيدلة في أوروبًا، وبقي هذا الكتاب محافظًا على مكانته العلمية، وعلى أثره الكبير في الطب والصيدلة طوال قرون متصلة .

• يقع كتاب ماسويه في ثلاثين جزءا .

• ترجمت معظم كتبه إلى اللغة اللاتينية، وتأثر الغرب بكتبه الطبية والصيدلانية. واهتم الغربيون بدراسة هذه الكتب والاقتباس منها.

• ومن كتب ماسويه المارديني الأخرى: «الترياق والأقرباذين» ويقع في اثنى عشر مجلدا، ويبحث في علم الأدوية الطبية ومضادات السموم، وما اصطلح على تسميته بالأدوية المركبة وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في أوربا في مدينة البندقية

سنة ١٤٧١.

● وله كتاب مهم آخر هو: «جراحة ماسويه»، صدرت طبعته الثانية بالبندقية عام١٤٧٩ ثم توالت طبعاته ثماني مرات، في القرن الخامس عشر.

● من المؤلفات المنسوبة اليه:

○ «إصلاح الأدوية المسهلة».

○ «الإسهالات والحقن الشرجية» أو «الأدوية المسهلة».

* * * *

الفصل التاسع عشر

ابن سينا (١٠٣٧م)

● يكاد يكون إن لم يكن بالفعل أشهر العلماء المسلمين، وهو واحد من أشهر العلماء في جميع الأماكن والعصور .

● هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا .

● اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما ، لكنه كان أيضًا عالما ونفسانيًا وفيزيقيًا وفلكيًا ورياضيًا وجيولوجيًا وصيدليًا ونباتيًا وموسيقيًا وشاعرا وقد بلغ القمة في هذا كله ، ولُقِّب بالشيخ الرئيس كما لقب بالمعلم الثالث (حسب الزمن ، ولو أنه في نظري يفوق المعلمين الأولين) ، كما عرف على أنه أرسطو الإسلام، وسماه الغربيون بأمير الأطباء. وحظى بتقدير واحترام العلماء والباحثين على مر العصور .

● كان ابن سينا سابقا لعصره في مجالات فكرية عديدة، ولم يصرفه اشتغاله بالعلم عن المشاركة في الحياة العامة في عصره؛ فقد مارس السياسة والإدارة وشارك في صنع النهضة العلمية والحضارية.

■

● قال عنه جورج ساتون (١٩٥٦) : «إن ابن سينا ظاهرة فكرية عظيمة ربما لا نجد من يساويه في ذكائه أو نشاطه الإنتاجي».. «إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى». ووصفه بأنه: «واحد من أعظم المفكرين وعلماء الطب في التاريخ» .

● وقال دي بور مؤلف كتاب الفلسفة الإسلامية الذي ترجمه الدكتور أبو ريدة : «كان تأثير ابن سينا في الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى عظيم

الشأن، واعتبر في المقام كأرسطو».

• ويقول أوبرفيل : «إن ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى، وتردد اسمه على كل شفة ولسان، ولقد كانت قيمته قيمة مفكر ملأ عصره.. وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق».

• وصفه هولميارد بقوله: إن علماء أوربا يصفون أبا علي بأنه أرسطوطاليس العرب، ولا ريب في أنه عالم فاق غيره في علم الطب وعلم طبقات الأرض .

■

• في فرنسا تتزين كبرى قاعات كلية الطب بجامعة باريس ؛ بصورة بورتريه لابن سينا تقديرا لعلمه واعترافا بفضله وسبْقه.

• تضع طاجيكستان صورته على عملتها (صورة غلاف هذا الكتاب) .

• في أوزبكستان لا يزال تمثاله المثير للإعجاب، الذي وصف بأنه يمثل حياة وأعمال الرجل الشهير بطبيب الأطباء ، قائمًا في الساحة الخارجية لمتحف بخاري.

• في إيران يعتبر ابن سينا رمزًا وطنيًا، وعادة ما يشار إليه على أنه واحد من أعظم الفرس. وقد سميت على اسمه جامعة ابن سينا في مدينة همدان حيث توفى ودفن في المدينة التي هي عاصمة محافظة مسماة باسمها الآن ، ويوجد له الكثير من البورتريهات والتماثيل في إيران.

• في بولندا صدر طابع بريد تكريمًا لابن سينا .

• تحمل اسمه أول كلية طب أهلية للتعليم الطبي (الصحي) في السعودية ، وجامعة للعلوم الطبية في الجامعة العراقية ببغداد ، كما يحمل اسمه المستشفى الجامعي في الرباط ، ومستشفى خاص في القاهرة ، ومعهد ابن سينا لهندسة المعرفة

في جامعة بير زيت .

● سميت على اسمه فوهة على سطح القمر : « فوهة ابن سينا » .

■

على أرجح الأقوال : ولد ابن سينا سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) . ونشأ ابن سينا في أوزبكستان، حيث ولد في خرميش إحدى قرى بخارى التابعة لأوزبكستان الآن ، ويقال: إنه ولد في قرية أفشنة الفارسية .

● تلقى تعليمه الأول على يد أبيه الذي كان أحد مشايخ الطائفة الإسماعيلية، وقد استفاد من البيئة العلمية ومن حضور مجالس العلماء الذين كانوا يجتمعون في البيت عند أبيه للحديث والمناظرة.

● ولما بلغ العاشرة ، كان قد أتم حفظ القرآن والكثير من الشعر ونصوص الأدب .

● ثم اتصل بأساتذة المنطق وعلم الكلام .

● لما بلغ الثامنة عشرة أحسّ أنه لم يعد بحاجة لمعلميه هؤلاء ،فتولى إتمام دراسته بنفسه.

● حصَّل معرفة متعمقة من الاطلاع الواسع على محتويات المكتبة الغنية في قصر السمنديين، الذين كانوا أول عائلة حاكمة كبيرة من أصول محلية ظهرت في فارس بعد الفتح العربي . وقد سمح لابن سينا بدخول تلك المكتبة العظيمة بعد نجاحه في علاج الأمير نوح بن منصور السمندي من مرض عجز كل أطباء عصره المشهورين عن علاجه.

● ولما بلغ العشرين من عمره توفي والده، فرحل إلى جرجان، وأقام بها مدة،

وبدأ تأليف كتابه «القانون» في الطب.

• ثم انتقل إلى همدان فحقق شهرة كبيرة، وصار وزيرا للأمير شمس الدين البويهي، إلا أنه لم يطل به المقام بها. ففي عام ١٠٢٢ توفي الأمير، وأعقب موت الأمير سجن ابن سينا .

• استطاع ابن سينا أن يهرب إلى أصفهان، (٢٥٠ ميلًا جنوب طهران) ، مصحوبًا برهط صغير من أعوانه وقرر أن يستقرّ فيها، قضى في أصفهان ١٤ عامًا في هدوء. وحظي برعاية أميرها علاء الدولة.

• وفيها أتم تأليف القانون في الطب كما أتم أيضًا كتابه الشهير الآخر كتاب الشفاء.

• وفي همدان أصاب جسده المرض واعتلّ، حتى قيل : إنه كان يمرض أسبوعًا ويشفى أسبوعًا، وأكثر من تناول الأدوية، ولكنّ مرضَه اشتدّ، وأدرك أنه لا فائدة من العلاج، فأهمل نفسه واغتسل وتاب، وتصدق بما لديه من مال للفقراء، وأعتق غلمانه طلبًا للمغفرة .

■

جمع ابن سينا بين العلم والإيمان والأخلاق النبيلة وعلى الرغم من الشهرة العريضة التي حققها كطبيب فقد كان يعالج مرضاه بالمجان، بل إنه كثيرا ما كان يقدم لهم الدواء الذي يعده بنفسه. وكان يستشعرُ نبل رسالته في تخفيف الألم عن مرضاه؛ فصرف جهده وهمته إلى خدمة الإنسانية ومحاربة الجهل والمرض.

• طغت المسحة العقلية بوضوح شديد على آرائه ونظرياته، وأفكاره وآثاره ومؤلفاته حتى إنه لم يكن يتقيد بما وصل إليه ممن سبقوه من نظريات، وإنما كان ينظر

إليها ناقدا ومحللا، ويعرضها على مرآة عقله وتفكيره، فما وافق تفكيره وقبله عقله أخذه وزاد عليه ما توصل إليه واكتسبه بأبحاثه وخبراته ومشاهداته، وكان يقول: «إن الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر الناس، وهم ليسوا معصومين عن الخطأ والزلل».

• كان من عادته إذا استعصت عليه مسألة علمية أن يذهب إلى المسجد لأداء الصلاة ، ثم يعود إلى المسألة بعد الصلاة بادئًا من جديد ؛ فيوفق في حلها .

• أثارت شهرة ابن سينا ومكانته العلمية حسد بعض معاصريه ، ووجدوا في نزعته العقلية مدخلا للطعن عليه واتهامه بالإلحاد والزندقة، ولكنه كان يرد بقوله: «إيماني بالله لا يتزعزع؛ فلو كنت كافرا فليس ثمة مسلم حقيقي واحد على ظهر الأرض».

أبرز ما خالف فيه من كانوا قبله أنه حارب التنجيم ، وسفّه بعض الأفكار السائدة في عصره في بعض نواحي الكيمياء. إذ خالف معاصريه ومن تقدموا عليه، ممن قالوا بإمكان تحويل بعض الفلزات الخسيسة إلى الذهب والفضة، فنفى إمكان حدوث ذلك التحويل في جوهر الفلزات، ووصفه بأنه تغيير ظاهري في شكل الفلز وصورته، وفسّر ذلك بأن لكل عنصر منها تركيبه الخاص الذي لا يمكن تغييره بطرق التحويل المعروفة.

■

و ينسب لابن سينا فضل في كثير من التقدم الذي حظي به الطب :

• مارس ما يعرف بالطب التجريبي ويطبقه على مرضاه، فقد كان يجرب أي دواء جديد يتعرف عليه على الحيوان أولا، ثم يعطيه للإنسان بعد أن تثبت له صلاحيته وقدرته على الشفاء.

• يسر الله له تحقيق عدد كبير من الفتوحات الطبية الجليلة فكان أول من كشف عن العديد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن .

أول من كشف عن طفيل (الإنكلستوما) وكتب عنها في الباب الخاص بالديدان المعوية في كتابه القانون في الطب، وأسماها بالدودة المستديرة، سابقا الإيطالي (دوبيني) بنحو ٩٠٠ سنة كما أنه وصف العدوى بديدان غينيا ، ووصف داء الفيل وكيفية انتشاره في الجسم، كما وصف مرض النار الفارسية.

■

• كان أول من كشف عن طرق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكر أنها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جدا لا تُرى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض، وهو ما أكده فان ليوتهوك في القرن الثامن عشر والعلماء بعد اختراع المجهر.

■

وعلى صعيد أكثر تخصصًا فإن لابن سينا مآثر على علوم الطب :

• هو أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية .

• وهو أول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري ،كما كان يعتقد من قبل، وإنما هو في العصب البصري.

• يذكر له وصفه التهاب العصب الثالث ، وأنه أول من وصف الالتهاب السحائي واستطاع التفريق بين التهاب السحايا الحاد والثانوي تمييزه بين شلل العصب الوجهي الناجم عن مرض في المخّ والناجم عن سبب موضعي .

• وهو أول من وصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفا بذلك ما

استقرّ عليه أساطين الطب اليونانيون .

• درس الاضطرابات العصبية والعوامل النفسية والعقلية كالخوف والحزن والقلق والفرح وغيرها، وأشار إلى أن لها تأثيرا كبيرا في أعضاء الجسم ووظائفها ، وكانت له آراؤه الثاقبة حول نسبة بعض الأمراض إلى الظروف النفسية .

• تمكن من معرفة بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي .

• كان يلجأ في بعض الأحيان إلى الأساليب النفسية في معاجلة مرضاه.

• استطاع التفريق بين المغص الكلوي والمعوي .

• أذاع تصوره عن احتمالية انتقال الأمراض عبر الهواء .

• تحدث عن تلوث البيئة وأثره على صحة الإنسان فقال: «فما دام الهواء ملائما ونقيا وليس به أخلاط من المواد الأخرى بما يتعارض مع مزاج التنفس، فإن الصحة تأتي». وذكر أثر ملوثات البيئة في ظهور أمراض حساسية الجهاز التنفسي.

• توصيته باستخدام الملقط في الولادات المعقدة بسبب الضائقة الجنينية .

• أعطى أهمية لما نعرفه الآن على أنه جس النبض .

• هو أول من وظف «القرع» بإصبعه فوق جسم المريض، وهي الطريقة المتبعة في تشخيص الأمراض الباطنية، والتي نسبت إلى ليوبولد أينبرجر في القرن الثامن عشر .

• هو أشهر من اعتمد في التشخيص على الاستدلال بالبول والبراز .

■

كان ابن سينا جراحا بارعا، تمرس بعمليات جراحية ودقيقة للغاية :

○ نجح في استئصال بعض الأورام السرطانية في مراحلها الأولى .

○ وفي شق الحنجرة والقصبة الهوائية .

○ وفي استئصال الخراج من الغشاء البلوري بالرئة .

● كما عالج البواسير بطريقة الربط.

وصف بدقة حالات النواسير البولية ، وتوصل إلى طريقة مبتكرة لعلاج الناسور الشرجي لا تزال تستخدم حتى الآن.

● وشرح كيفية استخراج حصوات الكلى والمحاذير التي يجب مراعاتها.

● فرق بين حالات استعمال القسطرة، و الحالات التي يحذر استعمالها فيها.

● أشار إلى عدة طرق لإيقاف النزيف، بالربط أو إدخال الفتائل أو بالكي بالنار أو بدواء كاو، أو بضغط اللحم فوق العرق.

● نبه إلى ضرورة أن يكون المعالج على معرفة تامة بالتشريح.

● شرح كيفية التعامل مع السهام واستخراجها من الجروح . وحذر من إصابة الشرايين أو الأعصاب عند إخراج السهام من الجروح .

وفي أمراض النساء:

● كان مجيدا في تشخيص وعلاج الانسداد المهبلي والأسقاط، والأورام الليفية.

● كتب عن أمراض فترة النفاس ، النزيف، واحتباس الدم، وما قد يسببه من أورام وحميات حادة .

● أشار إلى أن تعفن الرحم قد ينشأ من عسر الولادة أو موت الجنين، وهو ما لم يكن معروفا من قبل.

● تعرض أيضا للذكورة والأنوثة في الجنين وعزاها استنتاجًا إلى الرجل دون المرأة .

■

• **أما كتابه «القانون»** فيعد قمة الكتب العالمية في شهرتها وتأثيرها وخلودها، وكان يقال إنه في الطب «كأصول» إقليدس في الهندسة، أو «كالمجسطي» لبطلميوس في الفلك ، والحق إنه وصل إلى مكانة أرفع بفضل موضوعه وبفضل اسمه الحاسم .

• وفي كتاب «القانون» كما يقول الدكتور إبراهيم بيومي مدكور استيعاب ودقة، وترتيب ووضوح .

• وقد لخصه ابن سينا في أرجوزته الشهيرة التي قام ابن رشد (١١٩٨م) بشرحها والتعليق عليها.

• **يقع كتاب القانون في الطب في خمسة مجلدات :**

- **الأول :** خلاصة وافية للمبادئ الطبية .
- **الثاني :** مرجع للأدوية المخدرة .
- **الثالث:** وصف أمراض الأعضاء كل على حدة .
- **والرابع :** الأمراض التقليدية وبه قسم للتدابير الصحية الوقائية .
- **الخامس :** وصفات للأدوية المجمعة.

• حظي القانون في الطب بشهرة واسعة في أوربا، حتى قال عنه وليم أوسلر : إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن ، وظل يدرس في جامعات أوربا نحو ستة قرون، من القرن الثاني عشر إلى السابع عشر، وطبع نحو ١٥ مرة في أوربا ما بين عامي (١٤٧٣و١٥٠٠) ثم أعيد طبعه نحو عشرين مرة في القرن السادس عشر.

• توجد نسخة لاتينية من كتاب القانون في الطب ترجع لعام ١٤٨٤، في مكتبة نيكسون الطبية التاريخية التابعة لجامعة تكساس للعلوم الصحية في سان

أنطونيو.

• ظل «القانون» يُدرَّس في جامعات إيطاليا وفرنسا وبلجيكا حتى أواسط القرن السابع عشر، كان خلالها هو المرجع العلمي الأول بها.

■

• **وله أراجيز طبية:**

○ أرجوزة في التشريح

○ الألفية الطبية المشهورة التي ترجمت وطبعت

○ أرجوزة المجربات في الطب

• **ومن كتبه الطبية الأخرى :**

○ رسالة في النبات والحيوان .

○ كتاب الأدوية القلبية .

○ كتاب دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية .

○ كتاب القولنج .

○ رسالة في سياسة البدن وفضائل الشراب .

○ رسالة في تشريح الأعضاء .

○ رسالة في الفصد .

○ رسالة في الأغذية والأدوية .

■

كانت لابن سينا معرفة جيدة بالأدوية وفعاليتها، وقد صنف الأدوية في ست مجموعات، ومن خلال كتبه وتآليفه عرف العلماء والأطباء الفرق بين الأدوية المفردة

والمركبة (الأقرباذين) التي ذكرها في مصنفاته وبخاصة كتاب القانون ، وبلغ عدد الأدوية التي وصفها نحو ٧٦٠ عقارًا رتبها ألفبائيا.

كانت لابن سينا دراسات علمية جادة في مجال النباتات الطبية، وقد أجرى المقارنات العلمية الرصينة بين جذور النباتات وأوراقها وأزهارها، ووصفها وصفا علميا دقيقا ودرس أجناسها، وتعرض للتربة وأنواعها والعناصر المؤثرة في نمو النبات، كما تحدث عن ظاهرة «المساهمة» في الأشجار والنخيل، وذلك بأن تحمل الشجرة حملا ثقيلا في سنة وحملا خفيفا في سنة أخرى أو تحمل سنة ولا تحمل أخرى. وأشار إلى اختلاف الطعام والرائحة في النبات، وقد سبق كارل متز الذي قال (١٩٣٤م) بأهمية التشخيص بوساطة العصارة .

■

وفي ميدان الفلك :

• اشتغل ابن سينا بالرصد ، وطور في ضبط الرصد آلاتٍ لم يُسبق إليها. وابتكر جهازًا لرصد إحداثيات النجوم.

• قام ابن سينا بنفسه بدراسات فلكية تطبيقية حينما كان في أصفهان ثم في همدان . وأثمرت هذه الدراسات عددًا من الاستدلالات التي ثبتت صحتها بعد قرون.

• استطاع أن يرصد مرور كوكب الزهرة عبر دائرة قرص الشمس بالعين المجردة في يوم (١٠ من جمادى الآخرة ٤٢٣ هـ - ٢٤ من مايو ١٠٣٢م)، واستنتج محقًا أن كوكب الزهرة لابد وأن يكون أقرب للأرض مما هو للشمس وهو ما أقره العالم الفلكي الإنجليزي جيرميا روكس في القرن السابع عشر.

وله في علم الفلك عدد من المؤلفات القيمة، منها:

- كتاب الأرصاد الكلية.
- رسالة الآلة الرصدية.
- كتاب الأجرام السماوية.
- كتاب في كيفية الرصد ومطابقته للعلم الطبيعي.
- مقالة في هيئة الأرض من السماء وكونها في الوسط.
- كتاب إبطال أحكام النجوم.

■

في مجال الرياضيات و الفيزيقا :

- ابن سينا هو مبتكر مفهوم قوة الدفع في الفيزيقا .

وقد كان من أوائل العلماء الذين مهدوا لعلم الديناميكا بدراستهم في الحركة وموضع الميل القسري والميل المعاون ، وإليه يرجع الفضل في وضع القانون الأول للحركة، والذي يقول بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة، فقد سبق بعقله الذكي إلى ملاحظة حركة الأجسام، واستنباط ذلك القانون الذي عبّر عنه بقوله: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلي وطباعه ولم يعرض له من خارج تأثير غريب لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين، فإذن له في طباعه مبدأ استيجاب ذلك».

- وهو بذلك في رأي المتعصبين لعبقريته يعتبر سابقًا على إسحاق نيوتن بأكثر من ستة قرون (وعلى جاليليو بأكثر من خمسة قرون وليوناردو دافنشي بأكثر من أربعة قرون) ؛ مما يستحقُ معه أن ينسبَ إليه ذلك القانون الأول للحركة الذي كان

له فضل السبق إلى استنتاجه مبكرًا : «قانون ابن سينا للحركة والسكون».

• ابتكر ابن سينا آلة تشبه الورنية Vernier، وهي آلة تستعمل لقياس الأطوال بدقة متناهية.

• واستطاع بدقة ملاحظة أن يفرق بين سرعتي الضوء والصوت، وهو ما توصل إليه إسحاق نيوتن بعد أكثر من ٦٠٠ سنة.

• يسجل مؤرخو العلوم الرياضية أنه كانت له نظرياته في ميكانيكية الحركة، التي توصل إليها جان بيردان في القرن الرابع عشر، وسرعة الحركة التي كانت من العناصر التي بنى عليها ألبرت أينشتين نظريته الشهيرة في النسبية.

وله من الكتب في هذا الميدان :

○ رسالة الزاوية .

○ مختصر إقليدس .

○ مختصر الأرثماطيقي .

○ مختصر علم الهيئة .

○ مختصر المجسطي .

○ رسالة في بيان علّة قيام الأرض في وسط السماء، طبعت في مجموع (جامع البدائع)، في القاهرة سنة ١٩١٧ .

○ رسالة في إبطال أحكام النجوم .

○ رسالة في الأجرام العلوية وأسباب البرق والرعد .

○ رسالة في الفضاء .

■

في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) :

- كانت لإنجازات ابن سينا قيمة خاصة في المعادن وتكوين الحجارة والجبال.

- وكان يرى مبكرا أنها تكونت من طين لزج خصب على طول الزمان، وتحجر في مدد لا تضبط، وأن هذه المعمورة كانت في سالف الأيام مغمورة في البحار، وقد استدل على هذا بأنه كثيرا ما نجد في الأحجار إذا كسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها.

- وصف الزلازل وفسرها «بأنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض؛ بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يعرض له أن يتحرك ثم يحرك ما فوقه، والجسم الذي يمكن أن يتحرك تحت الأرض، إما جسم بخاري دخاني قوى الاندفاع أو جسم مائي سيّال أو جسم هوائي أو جسم ناري».

- وصف السحب وكيفية تكونها؛ فذكر أنها تولد من الأبخرة الرطبة إذا تصعّدت الحرارة فوافقت الطبقة الباردة من الهواء، فجوهر السحاب بخاري متكاثف طاف الهواء، فالبخار مادة السحب والمطر والثلج والطل والجليد والصقيع والبرد وعليه تتراءى الهالة وقوس قزح.

■

- لابن سينا إسهاماته في علوم الموسيقى ، ومن مؤلفاته فيها :

مقالة جوامع علم الموسيقى .

مقالة الموسيقى .

كتب ابن سينا أشعاره بالعربية والفارسية. وقد أشار إدوارد جرانڤيل براون إلى

أن بعض الأبيات التي ألفها ابن سينا نُسبت بالخطأ إلى عمر الخيام.

ويقال : إنه كتب رباعيات شعرية فارسية وقصائد قصيرة ، ومنها هذه المقطوعة :

«من وسط الأرض نهضت للسماء السابعة .

وتربعت على عرش زحل .

حللت عقدًا كثيرة في الطريق .

إلا العقدة الكبرى: قَدَر البشر» .

ومن الطريف أيضًا أن نحو نصف أعمال ابن سينا العلمية منظومة شعرًا.

■

أما الميدان الذي لايزال اسم ابن سينا يمثل المكانة المتقدمة فيه وهو الفلسفة فقد كتبت فيه مجلدات عديدة في جميع اللغات ويستحيل أن نلم بما قيل في مثل هذه الفقرات لكننا نلخص للقارئ الإطار العام لمكانة ابن سينا وإنجازه في الفلسفة وتاريخها .

● ومما هو معروف أن كثيرًا من العلماء لم يجدوا حرجًا في أن يكفروه لكني عن نفسي أعذره في استنتاجاته التي أنكروها عليه وأذهب مذهب ابن عماد في شذرات الذهب حيث قال : إن كتابه الشفاء اشتمل على فلسفة لا ينشرح لها قلب متدين.

● لا شك أن صحبة ابن سينا لفلاسفة الباطنية (أبو عبد الله النائلي الذي علمه بصغره) قد أثرت في تفكير ابن سينا، وهيأته للدور الذي لعبه في تنشيط تيار الفلسفة و(نظرية المعرفة).

● كان اتباعه يدعون بـ(الأولى) وقالوا مقالته ، ومن أشهرهم النصير الطوسي

محمد بن عبد الله ويقال له : الخواجا نصير الدين، الذي انتصر لمذهب ابن سينا والذبّ عنه وشرح إشاراته .

● في كتابه **«الإشارات والتنبيهات»** : ذهب ابن سينا مذهب أرسطو وقربه قليلًا إلى الأديان، وذهب ابن سينا مذهب الفلاسفة من أمثال الفارابي أبي نصر التركي الفيلسوف، وكان الفارابي يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني، ويخصص بالمعاد الأرواح العالمة لا الجاهلة،وأعاد تلك الفكرة ابن سينا ونصره، وقد رد عليه الغزالي في تهافت الفلاسفة في عشرين مجلسًا له كفَّره في ثلاث منها وهي قوله بقدم العالم، وعدم المعاد الجثماني، وقوله : إِنَّ الله لا يعلم الجزئيات، وبدّعه في البواقي.

● **كتاب الشفاء:** يعتبر موسوعة كبرى في العلوم الطبيعية وما بعد الطبيعة اشتهرت في القرن العاشر الميلادي. أراد ابن سينا أن يغطي به كل ما شملته علوم ما بعد الطبيعة في ذلك الوقت. وبين ابن سينا الغرض من هذا الكتاب حيث قال: «فإن غرضنا في هذا الكتاب الذي نرجو أن يمهلنا الزمان إلى ختمه، ويصحبنا التوفيق من الله في نظمه،أن نودعه لباب ما تحققناه من الأصول في العلوم الفلسفية المنسوبة إلى الأقدمين... وتحريت أن أودعه أكثر الصناعة، وأن أشير في كل موضع إلى موقع الشبهة وأحلها لإيضاح الحقيقة بقدر الطاقة. واجتهدت في اختصار الألفاظ جدا ومجانبة التكرار أصلا ألا ما يقع خطأ أو سهوا ، ولا يوجد في كتب القدماء شيء يعتد به إلا وقد ضمناه كتابنا هذا، وقد أضفت إلى ذلك ما أدركته بفكري وحصلته بنظري وخصوصا في علم الطبيعة وما بعدها».

■

● **كتاب النجاة:** خصص ابن سينا كتابه هذا لعلم المنطق والطبيعيات، ثم الهندسة والحساب، فعلم الفلك، ليختمه بالعلم الإلهي وسبل النجاة في الحياتين

الدنيا والآخرة.

وقد أشار في مقدمته إلى «أن طائفة من الإخوان الذين لهم حرص على اقتباس المعارف الحكمية سألوه أن يجمع لهم كتابًا يشتمل على ما لا بد من معرفته لمن يؤثر أن يتميز عن العامة وينحاز إلى الخاصة ويكون له بالأصول الحكمية إحاطة وسألوه أن يبدأ فيه بإفادة الأصول من علم المنطق ثم يتلوها بمثلها من علم الطبيعيات ثم يورد من علمي الهندسة والحساب ما لا بد منه لمعرفة القدر الذي يقرن بالبراهين على الرياضيات ،ويورد بعده من علم الهيئة ما يعرف به حال الحركات والأجرام والأبعاد والمدارات والأطوال والعروض دون الأصول التي يحتاج إليها في التقاويم وما تشتمل عليه الزيجات مثل أحوال المطالع والزوايا وتقويم المسير بحسب التاريخ إلى غير ذلك ، وأن يختم الرياضيات بعلم الموسيقى ثم يورد العلم الآلهي على أن يبين وجهه ويوجزه ،ويذكر فيه حال المعاد وحال الأخلاق والأفعال النافعة فيه لدرك النجاة من الغرق في بحر الضلالات» .

وسرعان ما تحدث ابن سينا عن أنه نجح في إنجاز الكتاب: فأسعفهم بذلك وصنف الكتاب على نحو ملتمسهم، فبدأ بإيراد الكفاية من صناعة المنطق ؛ لأنه الآلة العاصمة للذهن عن الخطأ فيما نتصوره ونصدق به والموصلة إلى الاعتقاد الحق بإعطاء أسبابه ونهج سبله...».

■

يقال إن ابن سينا كتب ٤٥٠ مؤلفًا، لم يصلنا منها سوى ٢٤٠ تقريبًا. ومن بين أعماله المتوفرة لنا اليوم، هناك ١٥٠ في الفلسفة و٤٠ في الطب وهما الميدانان العلميان اللذان قدم فيهما أكبر إنجازاته. كما وضع أعمالًا في علم النفس والجيولوجيا والرياضيات والفلك والمنطق.

● وقد كتب كل مؤلفاته باللغة العربية باستثناء كتابين اثنين وضعهما بالفارسية وهي لغته الأم.

○ أحد هذين الكتابين : موسوعة في العلوم الفلسفية .

○ والثاني يحتوي دراسة عن النبض وقد ذاعت شهرته فيها بعد كتب ابن سينا الأخرى .

■

لا يزال أثر ابن سينا باقيًا ولا تزال فلسفته مؤثرة وهادية وباعثة على المناقشة والتفكير والتحليل والنقد ، ممن تأثروا به البيروني، الغزالي ، عمر الخيام ، فخر الدين الرازي ، ابن رشد، السهروردى، الطوسي، ابن النفيس، ألبرتوس ماگنس، توما الأكويني، بندتي، جون لوك، ويليام هارڤي، موسى بن ميمون، أبو عبيد الجوزجاني

● توفي ابن سينا في يونيو ١٠٣٧م، في الثامنة والخمسين من عمره، ودفن في همدان، إيران.

*****

الفصل العشرون

علي بن رضوان الطبيب (١٠٦١م)

- هو أبرز الأطباء المصريين في تاريخ الطب العربي .
- هو أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر.
- عصامي كان والده فرانا ولكنه ارتقى بعلمه، حتى أصبح عميد الأطباء في عهد الحاكم بأمر الله .
- وكان له أيضًا تفوق كبير في الفلسفة والعلوم الرياضية .
- عرف بسعة الأفق و بعقليته المنفتحة المتفتحة، و ثقافاته المتعددة .
- كان معروفا بالرؤية الرحبة القادرة على إدراك تعدد الصواب في الرؤى المتعارضة والتوفيق بينها، وتدل كتاباته على هذا المعنى .
- **من الكتب المنسوبة إليه والدالة على هذا المنهج :**
  - «حل شكوك الرازي علي كتب جالينوس»
  - «التوسط بين أرسطو وخصومه»..
- وله أيضا قريبا من هذا المعنى «المستعمل من المنطق في العلوم والصنائع».
- **وله من التآليف الطبية مجموعة من الكتب التي تعبر في عناوينها عن استقرار علم الطب ووصوله إلى مرحلة العلم المكتمل ومنها :**
  - «كفاية الطبيب» مخطوط
  - «أصول الطب» مخطوط
- **وله أيضا رسالتان:**
  - «النافع في الطب».
  - و«دفع مضار الأبدان».

* * * *

الفصل الحادي والعشرون

ابن وافد (١٠٧٤م)

● هو رائد علم المادة الطبية في الحضارة العربية الإسلامية.

● هو عبد الرحمن بن عبد الكريم بن يحيى بن وافد بن مهند اللخمي ويكني: أبا المطرف.

● عالم طب وصيدلة ونبات، كان من أشراف مدينة طليطلة ووزرائها. ولد بها ثم استوطن قرطبة، وأخذ الطب عن أبي القاسم الزهراوي.

● كان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية، أو بما هو قريب منها، فإذا دعت الضرورة للأدوية فمن الأفضل التداوي بمفردها لا بمركبها، فإن اضطرّ إلى المركب منها كان على الطبيب ألا يكثر من التركيب .

● اهتم بجمع الأدوية وترتيبها عشرين سنة، وقد تشعب هذا الاهتمام ليشمل تصحيح أسمائها، وتحديد صفاتها وخصائصها، وتفضيل قواها ودرجاتها، ووضع بعد هذا أهم كتاب في العصور الوسطى عن العقاقير وهو كتابه «الأدوية المفردة» .

● جمع ابنُ وافد في هذا الكتاب ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس في الأدوية المفردة، ورتبه ترتيبًا عمليًا .

● تُرجم كتاب ابن وافد«الأدوية المفردة» إلى اللغة اللاتينية باسم: «كتاب في العقاقير البسيطة» كما ترجم إلى اللغتين العبرية والكاتلونية .

● وبالإضافة إلى عمادته للعلوم الصيدلية كانت لتآليفه الطبية وممارساته قيمة كبرى ومن هذه المؤلفات:

○ «منظومة في الطب» وتتألف من ٥٠٠٠ بيت، وهي مرتبة في ست مقالات، المقالات الأربعة الأولى منها في الأمراض من الرأس إلى القدم، المقالة الثانية لأمراض العين وهي في أربعمائة بيت، والمقالة الخامسة أفردها للحميات.

○ «الوساد في الطب»، وهو عن الأمراض ومعالجتها، والدهونات والأدوية الوعلاجات وقطورات العين.

○ «تدقيق النظر في علاج حاسة البصر»، وقد اعتمد عليه أطباء كثيرون مثل خليفة ابن أبي المحاسن الحلبي، واختصره محمد علي البالسي.

○ «الحمامات» .

○ «والمجربات في الطب».

● وعلى صعيد ثالث تثبت البيليوجرافيات لابن وافد مؤلفات زراعية منها كتابه «مجموع في الفلاحة» الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية.

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل الثاني والعشرون
ابن زهر (١١٦٢م)

طبيب عبقري ورائد من رواد طب الأورام على مستوى تاريخ الطب كله، إكلينكي بارز بلغ الذروة في عدد من التخصصات برز فيها علمه وفنه وممارسته وتأليفه.

هو الثالث في سلسلة من الأطباء من عائلة واحدة، ولكنه أعظمهم وأشهرهم وهكذا اصطلح على أنه المقصود بالاسم إذا أطلق الاسم دون تحديد.

من الطريف أن كنيته واسمه هو واسم أبيه تتفق مع رأس هذه العائلة الطبية، ولكنّ التاريخ الطبي حفظ التمييز بين هؤلاء جميعا ،وإذا أردنا تمييز هؤلاء بطريقة كتابنا المعاصر للأسماء فإن أسماءهم تكون علي النحو التالي:

١ - أبو مروان	عبدالملك	ابن أبي بكر	ابن زهر
٢- أبو العلاء	زهر	ابن أبي مروان	ابن زهر
٣ - أبو مروان	عبدالملك	ابن أبي العلاء	ابن زهر
٤ - أبو بكر	محمد	ابن أبي مروان	ابن زهر
٥ - أبو محمد	عبدالله	ابن الحفيد أبي بكر	ابن زهر
٦ - أبو العلاء	محمد	ابن أبي محمد	ابن زهر

بالإضافة إلى هؤلاء الستة ظهرت في هذه العائلة طبيبتان ماهرتان هما أم عمرو ابنة عبد الملك وابنتها.

توارثت هذه العائلة الطب والاشتغال به والتفرغ له دون غيره من العلوم،

ويُعد أفراد هذه العائلة من أوائل المتفرغين للطب الذين لم يمارسوا غيره من العلوم أو يؤلفوا فيها، ولم يشذ منهم عن هذه القاعدة إلا رابعهم أبو بكر الحفيد الذي نال شهرةً واسعةً في نظم الموشحات الأندلسية.

- ولد عبد الملك بن زهر في إشبيلية وتوفي فيها، وكان معاصرًا لابن رشد وسابقا عليه، ويروى أن رشد كان يعتبره أعظم الأطباء بعد جالينوس .

- ويذكر أيضًا أن ابن رشد هو الذي طلب إليه أن يؤلف كتابه «التيسير في المداوة والتدبير» ويدلنا الاسم نفسه على الفهم المبكر لما نسيمه الآن العلاج غير الدوائي وكيف أنه لابد أن يُمارس تبعا لأصول علمية وفنية .

- ارتحل ابن زهر في شبابه من أجل العلم فزار القيروان ومصر، وقيل : إنه زار العراق أيضًا.

شهد عبد الملك بن زهر انتقال الحكم من دولة المرابطين الذين دامت دولتهم حتى عام ٥٤٢هـ (١١٤٧ ميلادية) إلى دولة الموحدين، ومن الجدير بالذكر أنه أصبح وزيرًا مقربا من أول الخلفاء في دولة الموحدين وهو أبو محمد عبد المؤمن بن علي.

- يعرف ابن زهر عند الغربيين باسم Avenzoar .

- بلغ ابن زهر القمة في مجال العلاج بالمعنى الواسع للعلاج ، فإليه يرجع الفضل في تأصيل كثير من الطرق والأساليب العلاجية التي لا تزال تُمارس فهو الذي قنن التغذية عن طريق القثطرة في حالات عسر البلغ كما قنن التغذية عبر المريء وعبر الجلد وعن طريق المستقيم.

- يذكر لابن زهر أنه على المستوى الفكري حارب الدجالين والمنجمين ، وكان

حريصًا على الانتصار للمنطق كما كان يصدر في أعماله العلمية عن أساليب التجربة والقياس وكان يعول كثيرًا على دقة الدراسة السريرية في تشخيص الأمراض ومداوتها .

● اعتبر التجربة خير مرشد، وعده معاصروه أقرب الأطباء العرب إلى أبقراط في تفكيره.

● كان ابن زهر سباقًا إلى الكتابة عن تشخيص **أمراض وأورام كثيرة،** ونحن لا نملك إلا أن نندهش لوصول مثله في ذلك الوقت المبكر إلى اكتشاف حقيقة هذه الأورام وطريقة تشخيصها .

● هو على سبيل المثال أول من وصف أورام الحيزوم ،وأورام النخاع الشوكي ولهذا يعتبر في نظر الكثيرين بمثابة الأب الأول لعلم طبّ الأورام .

● وفي مجال **أمراض القلب** ، كان ابن زهر أول من وصف خراجات الغشاء التاموري المحيط بالقلب كما أنه أول من وصف التهاب غشاء القلب الرطب (الانسكابي) والجاف، وفرق بين التهاب التامور وأمراض الرئة.

● وفي مجال الأمراض الصدرية أضاف ابن زهر الكثير إلى معرفة الأطباء بأمراض السل.

● و يعد ابن زهر أيضًا من الرواد الأوائل **لعلوم الأمراض العصبية**. فقد درس أمراض المخّ ووصف الصداع النصفي، والرجفان، والصرع، والاختلاجات، والسبات والسكتة المخية، واستسقاء الرأس .

● ولابن زهر سبقٌ بارزٌ في مجال **الأمراض المعدية،** فهو صاحب الفضل في تصنيف الجرب على أنه مرض معدٍ، وقد تمكن من وصف الطفيل المسؤول عن

إحداث هذا المرض ، وقد وصف الطفيل بأنه قمل، وأنه حيوان صغير جدًا يكاد يفوت الحس.

● أثبت ابن زهر أن الجَربَ مرض جلديّ يتسبب عن أحد الطفيليات، وهي نظرية قلبت النظريات التي كان قالها أبقراط وجالينوس وابن سينا.

● وكتب كتابة مشابهة عن علاج البرص.

● وفي طبّ العيون عالج التراكوما جراحيا بشق شريان الخثر .

● وفي طب الأنف والأذن والحنجرة، تفوق ابن زهر في تشخيص أمراض الأذن وعلاج التهاباتها وكتب عن فقد الصوت وشلل الحنجرة، وعسر البلع كما وصف عملية شق الحنجرة وفتح القصبة الهوائية وشخص التهاب الأذن الوسطى وشلل البلعوم .

● وفي جراحة المسالك البولية وصف استخراج الحصى من الكلى .

● وفي علم التغذية كان ابن زهر رائدًا وقد كان من أوائل من ألفوا في علم التغذية على أنه علم مستقل بذاته وأفرد في كتابه «الأغذية» أبوابًا للأغذية المصنوعة من الحبوب ومن طحين البقوليات ثم الأغذية من اللحوم ثم أنواع الألبان ومنتجاتها وأسماك المياه العذبة والمالحة، وأنواع الفواكه والخضروات والتوابل والعسل والسكر.

وله رسالة في «تفضيل عسل النحل على السكر» انتقد فيها أطباء عصره الدين كانوا يفضلون السكر على العسل في تركيب الأدوية والأشربة، ونادى بالرأي المخالف.

● ولابن زهر سبق كبير في مجال الطب الوقائي ، وقد نظر إلى قواعد الطب

الوقائي باعتبارها وسائل لحفظ الصحة، وضمن مقدمة كتابه الأشهر أكثر من عشرين نصيحة لحفظ الصحة.

• وفي علوم الصيدلة كان ابن زهر من أوائل الذين انتبهوا إلى أساليب علمية لتقسيم العقاقير وما إليها وله بعض رسائل في أدوية بعينها كرسالته «التذكرة» وموضوعها الأودية المسهلة.

• رتب ابن زهر كتابه التيسير في بابين جعل الأول لما نسميه الآن الأمراض الخاصة بكل عضو على حده، على حين جعل الثاني للأمراض العامة أو العلل العامة، وعُني في كل من البابين بأسباب حفظ الصحة وطرق علاج المرض بالعقاقير والأشربة والدهان والمعاجين وغيرها من وسائل العلاج، وقد جعل لكتابه ملحقا بعنوان الجامع.

• ويتميز كتاب التيسير بأسلوب علمي تعليمي مدرسي ، وهو ما أهله لأن تعتمد عليه أوربا اعتمادا كبيرًا بعد ترجمته إلى اللاتينية، وقد نقل كثيرون عن هذا الكتاب، كما لخصه آخرون، ولخص بعض فصوله فريق ثالث.

• وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية بعد وفاة بنحو ١٨ سنة، وأثر في الطب الأوربي تأثيرًا ملحوظًا.

• ومن حسن الحظ أن الكتاب طبع في اللغة العربية (١٩٨٣) بتحقيق الدكتور ميشيل خوري محققًا له عن أربعة مخطوطات في الرباط وباريس ولندن .

• كذلك ترجم كتاب التيسير إلى العبرية، في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٠) أي بعد وفاة ابن زهر بمائة عام. ثم ترجم إلى العبرية مرة أخرى في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٠٦) على يد صموئيل هاميعاتي، وقد أسماه

بالعبرية اسما معناه: «مصباح الشفاء».

• مع انتشار الطباعة طُبعت بعض الترجمات اللاتينية لكتاب التيسير بدءًا من ١٤٩٠، ثم جاء عصر كانت فصول هذا الكتاب تطبع في كتب مستقلة (في أواخر القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر الميلادي) .

• عُرف الكتاب في أوربا بأسماء مختلفة تبعا لاختلاف طرق رسم العربية بحروف لاتينية، ومن هذه الأسماء Tajassir, Teiesir, Taysir .

• ولابن زهر مؤلفات طبية أخرى منها :

○ «الاقتصاد في إصلاح الأنفس والأجساد» .

○ «الزينة» وهو مفقود .

○ «الأغذية والأطعمة» .

○ «الجامع في الأشربة والمسجونات» .

○ «القانون» وهو غير كتاب ابن سينا بالطبع .

• وله رسائل في :

• «الحميات» .

• «علل الكلي» .

• «والبرص والبهق».

* * * *

الفصل الثالث والعشرون

موسى بن ميمون (١٢٠٤م)

عرف عني إصراري مرة بعد أخرى على وضع إنجازات الطبيب اليهودي موسى بن ميمون في إطار الحضارة الإسلامية رغم أن الرجل نفسه كان حريصا على يهوديته ورغم أن الظروف السياسية الحديثة والمعاصرة كانت تضعه مرة بعد أخرى حيث أراد اليهود لا كما نريد نحن .

● ولد موسى بن ميمون يهوديا و عاش في ظل الإسلام يهوديا ووصل في ديانته إلى درجة الحاخام.

● ولد في قرطبة وإليها كان ينسب نفسه، فقد سمى كتابه الفصول: «فصول القرطبي» ، ولك أن تقارن هذا بما هو مشهور عند المسلمين من أن أحد التفاسير المشهورة للقرآن الكريم «تفسير القرطبي» ينسب إلى قرطبي مسلم .

● تعرض في بداية حياته للاضطهاد في إسبانيا فانتقل إلى مراكش وعاش في مدينة فاس ثم نزح إلى عكا ثم إلى مصر حيث درس وتألق في العلم واحترف الطب.

● نال ثقة كل من صلاح الدين الأيوبي، وابنه الملك الأفضل الذي عينه طبيبا خاصًا له.

● عدّ موسى بن ميمون منذ القرون الوسطى بمثابة واحد من أفضل مفكري ذلك العصر.

● وله على الطب الإسلامي فضل «تقنين علم الطب التجريبي» كما كان أول من نشر رسالة في هذا المجال وهي مقالته «السموم والتحرز من الأدوية القتالة» وفيها ذكر كثيرًا من تجاربه الخاصة.

● كان موسى بن ميمون من أوائل من كتبوا باقتدار في الطب النفسي، وذلك من خلال رسالته المشهورة «الرسالة الأفضلية».

● وعلى الرغم من يهوديته ومرتبته فيها ، فإن معظم مؤلفاته كانت باللغة العربية وقلما كتب بالعبرية، و مع هذا فإنه تولى ، ترجمة أجزاء من كتاب «القانون» إلى العبرية.

● عمد في تآليفه الطبية إلى منهج التوسط على نحو ما فعل علي بن عباس المجوسي.

● نراه مجيدا حين لخص الكتب الستة عشر لجالينوس في كتابه «المختصرات».

● وعلى الطرف الآخر فقد تولى شرح فصول أبقراط .

● لم يتوقف موسى بن ميمون عند تراث الأقدمين وإنما نزع إلى فرض رؤيته وتسجيل خبرته، وهكذا ألف فصوله التي سماها فصول موسى بن ميمون في الطب، أو فصول القرطبي، وهو كتاب ضخم لا تزال توجد منه عدة مخطوطات .

● اعترف له معاصروه بالفضل، واتصل به كثير منهم .

● بلور موسى بن ميمون خبرته في بعض الموضوعات في كتب مستقلة :

○ كتابه عن «الربو» .

○ وكتابه عن «الختان» .

● ولموسى بن ميمون بالإضافة إلى هذا كتاب مهم في العلوم الصيدلية أسماه «شرح أسماء العقار» وقد ذكر أسماء العقاقير المستخدمة في اللغات المختلفة ورتب الأسماء تبعا للحروف الأبجدية على الطريقة التي نتبعها الآن في الموسوعات المعاصرة، واعتمد في كتابه على مجموعة من المراجع التي ألفها أسلافه: ابن جلجل وابن جناح ، والغافقي، وابن سمحون، وابن وافد .

الفصل الرابع والعشرون
عبد اللطيف البغدادي

• عبد اللطيف البغدادي مثقف موسوعي أفاد الطب منه ثورة في علم التشريح وفي علم الطب وفهمه ، ولهذا لا يستقيم الحديث عن أعلام الطب من دون الحديث عنه .

• هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد.

• ولد في بغداد في العراق سنة ١١٦٢م في دار جده بدرب الفالوج ببغداد .

• من أصل موصلي، واشتهر باسم عبداللطيف البغدادي ، ولقب بابن اللباد.

• كان أبوه مشتغلًا بعلم الحديث والقراءات، كما أن عمه كان فقيهًا، تيسر له بفضل والده وهو في صباه سماع الحديث من العلماء ونشأ في جو العلم والتقوى.

• روى البغدادي أن من مشايخه ابن التلميذ وابن نائل والإمام الناصرلدين الله .

• وعلم نفسه من كتب ابن سينا وجابر بن حيان الصوفي وابن وحشية .

• وصف تلمذته لابن سينا بقوله : «وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة الذي تم به فلسفته التي لا تزداد بالتمام إلا نقصا» .

كتب مذكراته فنقل عنها المؤرخون تصويره لحياته :

«لما دخلت القاهرة وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ رحمه الله أقرئ، وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس ياسين السيميائي والرئيس موسى بن ميمون اليهودي

وأبو القاسم الشارعي» .

• «ورجعت إلى دمشق وأكببت على الاشتغال وإقراء الناس».

• وصف البغدادي مجاعة مصر والغلاء العظيم والموتان الذي لم يشاهد مثله، وألف في ذلك كتابًا ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل، وسمى ذلك الكتاب «كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر». وفي هذا الكتاب صحح البغدادي كثيرا من أفكارنا عن التشريح ، ودفع الأطباء إلى ممارسة التشريح والانتفاع بنتائجه .

• كان عبد اللطيف البغدادي صاحب حس مرهف، ذواقًا للفنون والآثار، ظهر اهتمامه بذلك في الأيام التي قضاها في مصر، ورأى ما فيها من الآثار والفن، وصنف في ذلك كتابه المشهور (الإفادة والاعتبار) وهذا الكتاب الخاص بالآثار المصرية.

• عاد البغدادي إلى القدس وأقام بها مدة، وكان يتردد إلى الجامع الأقصى حيث تلقى الطلاب العلم عليه ، وصنف في هذه الفترة كتبًا كثيرة .

• ثم عزم أن يأتي إلى دمشق ويقيم بها، ثم خطر له أن يحج قبل ذلك ويجعل طريقه على بغداد، وأن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه .

• لما توجه إلى دمشق نزل بالمدرسة العزيزية بها، وسافر إلى حلب، وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة، وعمل مع الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان، وصنف باسمه عدة كتب .

• يكشف كتابه الأشهر عن معارفه الواسعة وهواياته المتعددة وأهمها الاهتمام بالآثار وولعه بها وغيرته عليها ومناداته بالحفاظ عليها وقد وصف آثار الجيزة ومنف وبوصير، وكان يصف الآثار وصفًا متناهيًا في الدقة والأمانة،

وكان يسعى لذلك بكل الوسائل، حتى إنه كلف رجلًا كي يقيس له ارتفاع الهرم.

● عني البغدادي باستكناه طريقة نقل حجارة الأهرام وتركيبها، والمواد التي استخدمت في بنائها واللغة المجهولة المكتوبة على الأهرام.

● وثار البغدادي ثورة كبيرة على أسلوب الكتابة في عصره ، ووصف أحد العلماء أسلوبه فقال : «إن أسلوبه من أرق الأساليب، وإن أفكاره عصريه، وكان عنده رغبة في الدقة، وميل إلى التحقيق العلمي مع أن له نقائص قد يلتمس له العذر فيها، وذلك بسبب الزمن الذي كان يعيش فيه».

● وله في العلوم الأخرى :

له في الطب وعلوم الحياة :

- اختصار مادة البقاء للتميمي .
- كتاب الفصول وهو بلغة الحكيم سبع مقالات .
- شرح كتاب الفصول لأبقراط .
- شرح كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط، اختصار .
- شرح جالينوس لكتب الأمراض الحادة لأبقراط .
- اختصار كتاب الحيوان لأرسطوطاليس .
- اختصار كتاب آلات التنفس.
- اختصار كتاب العضل .
- كتاب النخبة وهو خلاصة الأمراض الحادة .
- شرح الخطب النباتية .

وله في العلوم الأخرى :

- كتاب غريب الحديث .

- كتاب المجرد .
- كتاب الألف واللام .
- شرح أربعين حديثًا طبية .
- قوانين البلاغة .
- اختصار كتاب العمدة لابن رشيق .
- مقالة في الوفق .
- الجلي في الحساب الهندي.
- اختصار كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري .
- اختصار كتاب الصوت .
- اختصار كتاب المني.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

ابن البيطار (١٢٤٨م)

- هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي .
- لقب بالمالقي ؛لأنه ولد في ضاحية من ضواحي مدينة مالقة في الأندلس .
- اشتهر بابن البيطار لأن والده كان طبيبًا بيطريًا ماهرًا ، وهكذا فإنه على عادة أهل زماننا في وصف العلماء وآبائهم : أستاذ للصيدلة وابن أستاذ للطب البيطري .
- ولد حوالي سنة ١١٩٧م وتوفي في دمشق .
- يعتبر بمثابة القمة بين علماء النبات العرب الذين سبقوه : ابن جلجل، والشريف الإدريسي، وابن الصوري، وأبو العباس النباتي .
- وهو أعظم عالم نباتي في القرون الوسطى، وله إسهامات عظيمة في مجالات الصيدلة و الطب، وإذا كان هناك في تاريخ الطب العرب «شهيد للدواء» فهو ابن البيطار : ذلك العالم الذي توفي وهو يجرب أحد العقاقير التي كان يحاول استخلاصها.
- ويعد كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (ويعرف أيضا بمفردات ابن البيطار) من أنفس الكتب النباتية. وقد أوضح في مقدمة كتابه أهدافه من تأليفه.
- وقد رتب ابن البيطار مفردات كتابه ترتيبا أبجديا مع ذكر أسمائها باللغات المتداولة في مواطنها.
- ضمت موسوعته المتفوقة فصولا موسوعية عن إعداد وتركيب الدواء والغذاء شملت ١٤٠٠ نوع من النباتات التي يمكن استخدامها في الأغراض الطبية، كما ضمت اسم ٣٠٠ نوع من النباتات التي لم يتعرف إليها طبيب قبله، كما

ذكر طريقة تركيب الدواء لبعض الأمراض، والجرعة المطلوب تناولها للعلاج.

• تتلمذ على يد أبي العباس النباتي بن الرومية الإشبيلي، في منطقة إشبيلية وعبد الله بن صالح وأبي الحجاج.

• وصف بأنه كان صاحب أخلاق سامية، ومروءة كاملة، وعلم غزير. وكانت له ذاكرة فائقة، وقدرة خارقة علي التنظيم والترتيب مما ساعده على تصنيف الأدوية التي قرأ عنها، وقد برع في معرفة الأدوية النباتية والحيوانية والمعدنية، واستخلص من النباتات العقاقير المتنوعة بعد تجارب و صبر ودأب.

• كان يرى أنّ أعمال القدماء غير كافية ، وأنها يجب أن تصحّح وتكمّل حتى يستفيدوا منها أكثر ما يمكن.

• بدأ حياته العلمية في الأندلس، ثم انتقل إلى المغرب، ولما بلغ العشرين من عمره رحل في طلب العلم وزار مراكش والجزائر وتونس ولقيَّ الباحثين في علم النبات ، ثم انتقل إلى آسيا الصغرى مارّا بدمشق وأنطاكية ومنها إلى الحجاز وغزة والقدس وبيروت ومصر ثم انتقل إلى بلاد اليونان، ووصل إلى أقصى بلاد الروم وعاد أخيرا واستقر في دمشق.

• وفي دمشق أكرمه الملك الصالح الأيوبي وهناك كتب مدوناته ونتائج أبحاثه التي توصل إليها .

• وبالإضافة إلى إنجازه العلمي الذي تحقق فيها ألف وصنف فقد تمثل فيه نموذج العالم الطبيعي «الميداني» الذي درس الأشياء في مواضعها وتحقق منها بنفسه، وإلى جانب ذلك كان لابن البيطار اطلاع واسع مفصل على مؤلفات من سبقوه في هذا الموضوع مثل ديقوريدس وجالينوس والإدريسي .

• عرف بأمانته العلمية في النقل واعتماده على التجربة كمعيار لصحة الأحكام

وكان يقول أنه عني في كتابه بذكر ماهيات هذه الأدوية وقوامها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعلم في جرمها أو عصارتها أو طبيخها والبدل منها عند عدمها .

● وهو القائل:

«ما صحَّ عندي بالمشاهدة والنظر، وثبت لدي بالمخبر لا بالخبر أخذت به، وما كان مخالفًا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية والماهية للصواب نبذته ولم أعمل به» .

● ويقول عن محتويات كتابه :

«استوعبت فيه جميع ما في الخمس المقالات من كتاب الأفضل دياسقوريدوس بنصه وكذا فعلت أيضا بجمع ما أورده جالينوس في الست مقالات من مفرداته بنصه، ثم الحقت بقولهما من أقوال المحدثين وفي الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكراه ووضعت فيه عن ثقات المحدثين وعلماء النباتين ما لم يصفه وأسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائلها وعرفت طريق النقل فيها بذكر ناقلها فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدى أن ما ادخرته كنزا سريا، وأما ما كان مخالفا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والماهية نبذته ظهريا ولم أحاب في ذلك قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد على صدقه» .

● لابن البيطار كتاب آخر هو «المغني في الأدوية المفردة» بحث فيه أثر الدواء في كل عضو من الجسم كالأذن والعين والمعدة والأدوية المجملة كالأدوية ضد الحمى وضد السم.وهو يلي كتاب الجامع من حيث الأهمية، ويقسم إلى عشرين فصلًا، ويحتوي على بحث الأدوية التي لا يستغني عنها الطبيب ، وأثر الدواء في كل عضو من الجسم كالأذن والعين والمعدة والأدوية المجملة كالأدوية ضد الحمى وضد السم .ويوجد منه العديد من النسخ المخطوطة.

● ويذكر لابن البيطار في علاج السرطان، أنه اكتشف أحد أوائل الأدوية

العشبية المداوية للسرطان وهي عشبة (الهندباء) ، وهي نبته أثبتت نجاحها لامتلاكها خصائص مضادة للسرطان وعلاج الأورام الخبيثة،وقد أثبتت فائدتها ونجاحها في العلاج .

● أثبتت الوصفات الطبية التي دوَّنها ابن البيطار في كتبه نجاحًا عظيمًا في الشرق والغرب، واعتمدت كأساس لعلم العقاقير، واستعمل كتابه مرجعًا في تكوين أول صيدلية إنجليزية في كلية الطب في عهد جيمس الأول .

من كتبه :

- «كتاب الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام».
- تفسير كتاب دياسقوريدوس في الأدوية المفردة، وهو شرح أدوية كتاب دياسقوريدوس، وهو عبارة عن قاموس بالأمازيغية والعربية والسريانية واليونانية وشرح للأدوية النباتية والحيوانية والمعدنية .
- كتاب في الطب.
- مقالة في الليمون.
- ميزان الطبيب.
- الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.
- رسالة في التداوي بالسموم.

● توفي ابن البيطار في دمشق بسوريا سنة ١٢٤٨ وهو في التاسعة والأربعين من عمره وكانت وفاته كما ذكرنا اثناء قيامه بأبحاثه وتجاربه على النباتات، حيث تسرب اليه السم أثناء اختباره لنبتة حاول استخلاص دواء منها.

****

الفصل السادس والعشرون
ابن أبي أصيبعة (١٢٧٠)

• هو صاحب الفضل الأوفى على تاريخ الطب والأطباء في العصر الإسلامي وذلك بما سجله في موسوعته الكبرى «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» التي لا تزال إلى يومنا هذا بمثابة المرجع الأول و الأوفي لمعلوماتنا عن أعلام الطب العربي الإسلامي، وقد رتب هذه الموسوعة الفريدة والرائدة ترتيبا زمنيا بادئًا بالأطباء النوابغ في عهود الإغريق والرومان والهنود وذلك قبل أن يترجم لأطباء العصور الإسلامية المتعاقبة.

• كان ابن أبي أصيبعة طبيب عيون كحالا ، وقد ورث هذه المهنة عن والده الذي وصل إلى مرتبة شيخ الكحالين في دمشق، وقد درس في الشام ثم انتقل إلى القاهرة التي كانت قد أصبحت في ذلك الوقت بمثابة أبرز مراكز العلم في العالم الإسلامي.

• عمل ابن أبي أصيبعة في المستشفي الناصري الذي ينسب إلى صلاح الدين الأيوبي (الملك الناصر) وحقق شهرة طيبة ومكانة علمية متقدمة، وأصبح من أطباء السلطان صلاح الدين ، ثم انتقل إلى مرخو السورية حيث عمل في خدمة الملك عز الدين.

• تميز ابنُ أبي أصيبعة في كتابته الموسوعية بالإحاطة والإنصاف، ويتجلى هذا حين نجد تراجمه لمعاصريه، وقد أعطتهم حقهم في مقابل نبيل ونادر للأخلاق والطباع التي يفرضها التنافس وآراء أصحاب المهنة الواحدة بعضهم في بعض .

● وبالإضافة إلى هذا فقد تميزت موسوعة ابن أبي أصيبعة بحس أدبي ونقدي متميز، فلم تقف عند حدود العلم، وإنما أوردت تعريفات جيدة بالآثار الأدبية والفكرية للأطباء مع تقييم نقدي لقدراتهم الأدبية والبيانية ولأفكارهم الفلسفية ومعتقداتهم، وهكذا نجح ابن أبي أصيبعة في أن يقدم موسوعة علمية فكرية أرقى وأشمل بكثير من أن تكون سجلًا للطب والأطباء .

● وقد استأنف (ولا نقول استكمل) بعض الأطباء والمؤرخين جهود ابن أبي أصيبعة لكنهم لم يمكنهم تجاوز ما حققه فاعترفوا حتى في عناوين كتبهم بأنهم يكملون عمله الذي توقف بوفاته وذلك من خلال الترجمة للأطباء في العصور التالية له.

❊ ❊ ❊ ❊

الفصل السابع والعشرون

ابن النفيس (١٢٨٨م)

• هو واحد من أبرز وأهم الأطباء في تاريخ العالم لا في الحضارة الإسلامية وحدها.

• وهو طبيب عالم عامل واسع الأفق .

• هو صاحب الفضل الأول في اكتشاف وفهم الدورة الدموية وتشريح القلب والأوعية الدموية، فقد تمكن من الوصول إلى الحقيقة التي نعرفها الآن من أن الحاجز بين البطينين في القلب حاجز كامل لا يحتوي ثقوبا، وكان المعتقد قبل هذا أن الحاجز يحوي ثقوبا تكفل الاتصال بين البطينين، وظل الأطباء يتناقلون هذا المعتقد منذ عهد جالينوس حتى اكتشف ابن النفيس من خلال التشريح خطأ هذا المعتقد، وأساتذتنا يحدسون الآن أن جالينوس كان يشرح أطفالا ماتوا مصابين بالثقب الحاجزي البطيني.

• هذا هو الاكتشاف الأكبر لابن النفيس وهو وصفه للدورة الدموية الصغرى التي تنقل الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين ، ثم إلى القلب وذلك في مقابل الاعتقاد السابق بأن الدم ينتقل من البطين الأيمن إلى البطين الأيسر مباشرة عبر ثقوب الحاجز البطيني.

• كذلك كان ابن النفيس سباقًا إلى القول بأن القلب يرتوي من خلال الشريان التاجي المحيط به، وكان الاعتقاد قبل هذا أن القلب يؤتى غذاؤه من الدم الذي في تجاويفه.

• وإلى ابن النفيس يعود فضل ثالث وهو اكتشاف وجود ما أسماه هو تجاويف

أو منافذ محسوسة فيما بين الأوردة والشريين، وهي ما يعرف الآن باسم الشعيرات الدموية.

• كان ابن النفيس عالما مبرزًا في جيله، ولد في دمشق في عهد الملك العادل أخي الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، ودرس الطب في البيمارستان النوري الكبير في دمشق، ثم انتقل إلى القاهرة التي كانت أبرز حواضر العلم في الدولة الإسلامية في ذلك الوقت (وكذلك فعل المؤرخ الطبي العظيم ابن أبي أصيبعة الذي ولد قبله بعشر سنوات) .

• وفي القاهرة اختير ابن النفيس رئيسا لقسم طب العيون في البيمارستان الناصري، ثم أصبح رئيسا لأطباء البيمارستان المنصوري، وهو أعلى منصب طبي في ذلك الوقت، وقد ظل يمارس الطب باقتدار وحظى بثقة الحكام المتعاقبين، ووهب حياته للطب.

• تميز ابن النفيس بقدرات ذهنية وعلمية هائلة، كان يملى كتبه من الذاكرة دون حاجة إلى النقل من المراجع، وكان سريع البديهة قوي الملاحظة، وتروى عنه في هذا الشأن حكايات كثيرة.

• كان ابن النفيس متبحرًا في العلوم والمعارف لا في الطب وحده ، ويروى أنه كان وهو كبير الأطباء في المستشفي المنصوري يقوم بتدريس علوم الدين في «المدرسة المسرورية».

• وكان شديد الثقة بنفسه وبمؤلفاته وأدائه حتى إنه ينسب إليه قوله: «لو لم أعلم أن مؤلفاتي تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما ألفتها» .

• وقد ألف في الأدب والفلسفة: «فاضل بن ناطق» .

● وفي التاريخ : «الرسالة الكلية في السيرة النبوية» .

● وفي علم الحديث: «مختصر علم الحديث» .

● وفي الفقه : «التنبيه إلى طرق الشافعية» .

● وفي النحو: «طريقة الفصاحة».

● أما في الطب فقد ترك كتابه أو موسوعته الضخمة «الشامل في الطب» وكان ينوي أن تشمل ثلاثمائة مجلد لكنه لم ينجز منها غير ثمانين فقط :

○ «تفاسير العلل وأسباب الأمراض» .

○ و«المهذب في الكحل» .

○ و«المختار في الأغذية» .

● كان ابن النفيس كما نعرف لاحقًا لابن سينا، وقد لخص كتابه «القانون» في تلخيص مشهور كما ألف كتابه «شرح تشريح القانون» مفصلًا القول في آرائه التي عقب بها على الآراء التشريحية لابن سينا التي وردت في ثنايا كتابه الأشهر «القانون».

● و«موجز القانون» لابن النفيس هو الكتاب الذي شرح فيه فكرة الدورة الدموية الصغري، ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٤٧م، ومن الثابت كما يذكر الدكتور إبراهيم مدكور، وكما فصّل الدكتور بول غليونجي القول أن متأخري البادويين قد عرضوا لهذه الدورة، ومن الثابت أيضا أن هارفي (١٦٥٧م) تتلمذ لهم، ومن الجائز أن يكون قد وقف على شيء مما قاله به ابن النفيس.

● وقد ظل هذا الكتاب مجهولا للعامة حتى اكتشف الطبيب المصري محيى الدين التطاوي نسخة مخطوطة نادرة من مخطوطته في مكتبة برلين (١٩٢١) ، وقد

حقق هذه المخطوطة، ونال عنها درجة الدكتوراه في رسالة بعنوان «ابن النفيس المكتشف الحقيقي للدورة الدموية» .

• وقد واصل عدد من كبار الأطباء المهتمين بتاريخ الطب العربي الاهتمام بجهود ابن النفيس وفكره . حتى أمكن لنا أن نصل الآن إلى تقدير قيمته العلمية العظيمة .

• ومع هذا تبقى للرأي الذي يحتفظ بالفضل للأوربيين في الكشوفات التي سبق إليها ابن النفيس وجاهته، إذ أن ابن النفيس اكتشف ما اكتشفه وسجله دون أن يتصل اكتشافه بمدرسة علمية مستمرة تتبنى فكره وتنشره وتبنى عليه وتدافع عنه إلى أن نقل الأوروبيين آراءه، وطوروها ودافعوا عنها ، ونسبوها إلى أنفسهم في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي ، وذلك بعد خمسمائة سنة من كشف ابن النفيس.

• توفي ابن النفيس في عهد السلطان قلاوون، وقد أوصى بكل ثروته للمستشفى المنصوري، وكان من أملاكه دار فاخرة ومكتبة خاصة عدت بمثابة أعظم مكتبة علمية في ذلك العصر.

* * * *

الفصل الثامن والعشرون

الغافقي(١٣٤٠م)

• هو أحمد بن محمد بن أحمد الغافقي، ويكني بأبي جعفر، ولد بقرطبة وتعلم وعاش عمره كله فيها.

• من أبرز علماء الصيدلة والنباتات الطبية العرب .

• يعد كتابه الأشهر «الأدوية المفردة» موسوعة علمية في الأدوية ، كانت بعض كتبه مزينة بالرسوم التفصيلية للنبات وكانت رسومًا رسوم متقنة وجميلة ودقيقة .

• تميز منهجه العلمي بالأصالة، والاعتماد على الملاحظة المباشرة وعلى الدراسة العملية للنبات في بيئته الطبيعية، وبهذا وصل إلى فيض من الحقائق العلمية عن النباتات التي درسها، وسجل هذه الحقائق، وأظهر خطأ ما تناقله العلماء من قبله عن كثير من النباتات، وبلور معارفه بطريقة علمية وموسوعية رفيعة المستوى في كتابه الأشهر «الأدوية المفردة» .

• وكما تفوق في رسم النباتات ووصفها فقد تفوق في ضبط الأسماء العربية والبربرية واللاتينية وضبط المصطلحات اللغوية المتصلة بالنبات والدواء واستعمالاتها مع الوصف المورفولوجي الدقيق، وطرق استعمال كل دواء.

• وقد انتبه الغافقي إلى بيان أهمية الجهود التي بذلها من خلال مدرسته العلمية ولم يتورع عن نقد مَنْ سبقوه بمن فيهم أبو بكر الرازي أكبر العلماء السابقين عليه الحاوي، وقد لفت النظر إلى نقل هؤلاء بعضهم عن بعض حتى «إنهم يكررون الخطأ متى وقع فيه السابق ويخلطون بين أقوال أكثر من مصدر».

• ويتميز كتاب «الأدوية المفردة» بالحديث عن نباتات طبية كانت تستخدم في

الأندلس ولم تكن مسجلة في كتب السابقين.

● وقد فقد النصف الأخير من هذه الموسوعة ولم يصلنا منها إلا أجزاؤها الآن حتى حرف الكاف.

● وللغافقي أيضًا «الأدوية»، و«منتخب جامع المفردات»، و«الأعشاب».

● وقد مارس الغافقي التطبيب وإليه ينسب كتابان في هذا المجال هما :

○ «رسالة في الحميات والأورام» .

○ «رسالة في دفع المضار الكلية عن الأبدان الإنسانية».

* * * *

الفصل التاسع والعشرون
ابن خاتمة (١٣٦٩م)

• هو أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بن خاتمة، الأنصاري المري الأندلسي، الملقب بالمقرئ .

• ولد بألمرية في بلاد الأندلس، وتولى قراءة القرآن الكريم في الجامع الأعظم بالمرية ولهذا لُقب بالمقرئ.

• هو أول طبيب كتب في علم الأوبئة ووضع فيه كتابه الرائد : «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد».

• هدته فطرته وثقافته وخبرته إلى منهج علمي متميز في هذا العلم، اعتمد فيه على ملاحظاته مع ترتيب هذه الملاحظات وتوصيفها بأسلوب علمي

• دفعته الظروف إلى هذا الإنجاز حين شهد (١٣٤٧هـ) وهو مقيم في وطنه ببلاد الأندلس انتشار وباء الطاعون من الصين إلى بلاد الأندلس مارّا بحوض البحر الأبيض والدول الوسيطة، فأخذ يراقب سير المرض، وحالة المرضى، ومآلهم، ويسجل كل هذه المشاهدات والملاحظات، ثم عاد بعد عامين (١٣٤٩هـ) إلى هذه الملاحظات فدرسها دراسة علمية ونظمها وألف منها كتابه «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد».

• تناول ابن خاتمة في كتابه هذا حقيقة وباء الطاعون، وخصائصه، وأعراضه، وأسبابه، وطرق العدوى به.

• اعتبر هذا الكتاب بمثابة أهم ما كتب عن الطاعون ووبائياته، كما اعتبر بمثابة أول كتاب في الوبائيات.

• ولم يقف الكتاب عند حدود علم الوبائيات ، ولكنه كعادة الكتب في ذلك الوقت تناول كل ما يختص بالمرض بدءًا من الوقاية منه وحتى علاجه.

• أما تكوين هذا العالم ، فلربما كان غريبًا على الإنجاز الذي حققه، فهو في الأصل فقيه وشاعر تنسب له كتب في التاريخ والأدب واللغة فضلًا عن اللقب الذي حازه بفضل قراءة القرآن الكريم .

* * * *

المحتويات